

بنات النبي

عليه الصلاة والسلام



بقلم

الدكتورة بنت الشاطئ

مقدمة

تمضى القرون والادهار ، وشخصية « محمد - صلى الله عليه وسلم » موضع اهتمام الكتاب والدارسين على اختلاف نحلهم وشتى مذاهبهم ، يجدون فيها المادة الخصبة للدراسة الجديدة أبدا ، ويلتمسون لديها مايجلو أسرار العظمة الانسانية كما تمثلت فى بشر رسول ، بهر الدنيا وصنع التاريخ ، وانه لياكل الطعام ويمشى فى الاسواق ذلك لأن الانسانية - على كثرة من عرفت فى تاريخها الطويل من رسل وأنبياء ، وقادة وأبطال - ستظل أبدا الدهر ترنو الى هذا النبى العربى الذى لم يحاول قط أن يبرأ من بشريته ، بل أصر على الاعتراف بها فى اعتزاز مؤثر ، لا يعرف التاريخ له مثيلا

وحين تختلف بالناس الاديان ، وتفرقهم المذاهب والملل والاهواء أحزابا وشيعا ، فان البشرية ستظل مابقيت ، تباهى بأن يكون منها نبى حمل الى الدنيا رسالة التوحيد التى رفعت عنها وصمة الوثنية البلهاء ، وجاء الناس بدين الاسلام الذى لم يستكثر على بشر منهم ، أن يرقى الى منزلة الانبياء

وهذا الايمان العميق بعظمة البشر الرسول ، هو الذى وجه دراساتي للجوانب التى اخترتها - بحكم الجنس - من شخصيته الفذة : فكان كتابى عن « آمنة بنت وهب » محاولة لفهم جانب البثوة فى الوليد اليتيم الذى وضعته

امراة من قريش تأكل القديد ، كما تضع كل أنثى من البشر
ليكون - بعد أن يبلغ أشده - المصطفى المبعوث بأخر
رسالات السماء

وكان كتابي عن « نساء النبي » محاولة لدرس شخصية
الزوج الرسول ، اذ يمارس حياته الزوجية في بيته
ببشرية سوية ، لم تجردها النبوة من العواطف والمشاعر
والرغبات ، ولم تنكر على نسائه - أمهات المؤمنين - نوازع
الفطرة وأعواء الجنس وميراث حواء !

وهذا كتابي عن « بنات النبي » أحاول فيه أن أستجلي
ملامح شخصية الاب الرسول ، وأن أعرض صورة أمينة
لعاطفة الابوة ، ممثلة في شخص نبي انسان ، سواء الله
بشرا وأراد أنه أن يكون والدا لبنات أربع ، في بيئة وأدت
الاناث وقتنت بالبنين

وبعد فأحسب أن قارئى يقدر أن لموضوع هذا الكتاب
من الجلال والمهابة والحرمة عند مثلى ، ما يحميه من شطط القلم
وجموح الخيال ، ومن ثم لا أرانى في حاجة الى أن أؤكد أن
مادة الكتاب تاريخية أصيلة ، قد أخذت من مصادرها الاولى ،
وأن ليس لي من عمل فيه سوى جهد البحث وأمانة النقل
وأسلوب التناول والاداء

لكنما يعنينى هنا أن أقول : انه اذا كان بعض قومى
يتخرجون من التحدث عن الجانب البشرى في حياة الرسول
زوجا وأبا ، فانى لأحمد الله على أن عصم ايمانى من مثل
هذا التحرج المنكر الذى يشعر بأن من أنباء الحياة الخاصة
لحاتم الانبياء ، ما يحتاج الى ستر أو كتمان ! ومعاذ الايمان
بعظمة الرسول الكريم الذى تلا علينا من هذه الانباء ،
آيات قرآنية يتعبد بها منا من يؤمن بالله ، ويصدق برسالة
محمد بن عبد الله الهاشمى القرشى ، عليه الصلاة والسلام

بنت الشاطىء

الأبوة في المجتمع العربي

- ١ - الأبوة في الجاهلية
- ٢ - الأبوة العربية في
الرسالة الحميدة وفي شخص
الرسول الكريم

الابوة فى الجاهلية

حين تهيأت للكتابة عن بنات النبى صلى الله عليه وسلم، بدأت أقرأ فى كتب السيرة والحديث والتاريخ ، لأستخلص منها مايتصل بهؤلاء الكريمات اللواتى شرفن بأ مجد أبوة عرفتها البشرية منذ كانت . غير أنى ما كدت أمضى فى القراءة ، حتى وجدت أنى لن أستطيع الوفاء بحق الموضوع، اذا لم أبدأ قبل كل شىء بدراسة متفرغة لأبوة محمد ، وهى دراسة شاقة ، تحتاج دون ريب الى خبرة دقيقة بالمجتمع العربى ومعرفة مكان الأبوة فيه ، لكى يكون لنا من هذا كله مايجلو صورة الأب الرسول ، ويزيدنا أدراكا لنواحي السمو والجلال فيها

والحديث عن الأبوة فى المجتمع العربى ، حديث يطول ، وأخشى اذا أنا أرسلت قلمى يكتب فيه ملء عنانه ، أن يستغرق أكثر القدر المفروض لهذا الكتاب أو يجور على الموضوع الاصيل الذى يحدده عنوانه ، ومن ثم رأيت ضبطا للتناول ، أن أنسقه فى أجزاء ثلاثة : ألم فى أولها بالأبوة العربية كما تصورها الحياة الجاهلية ، وأنتقل منها الى هذه الأبوة كما تبدو فى الرسالة المحمدية ، ومن ثم فى شخص الأب الرسول

أما الأبوة العربية كما تصورها الحياة الجاهلية ، فربما بدأ
لأول وهلة ، أنها غير ذات اتصال قريب بموضوعنا ، لكننا
إذا ذكرنا أن محمدا صلى الله عليه وسلم تزوج قبل أن يبعث
بخمسة عشر عاما ، وأن بناته الأربع جميعا قد ولدن في
الجاهلية ، وأدركن المبعث وثلاث منهن متزوجات ، إذا
ذكرنا هذا ثم أضفنا إليه ما نعرف من احتكام الوراثة وأثر
البيئة ، بدت لنا صلة « الأبوة العربية في الجاهلية »
بموضوعنا ، قوية وثيقة الى حد لا يسمح لنا بتجاهلها أو
التغاضي عنها ، حين نحاول أن نتحدث عن « محمد » في أبوته

ذلك لأنه إذا كان المنهج العلمى ، يأبى علينا أن نبتز
شخصا من بيئته التى صنعتة ، أو أن نفصل بينه وبين آبائه
وأجداده الذين تنقل فى أصلا بهم جيلا بعد جيل ، فنحن أولى
بألا نقترف هذا الخطأ ، فى الحديث عن بشر رسول ، طالما
اعترف بفعل الوراثة فى مثل قوله : « تخيروا لنطفكم فان
العرق دساس » أو قوله : « ... لم يزل الله ينقلنى من
الأصلاب الطيبة الى الارحام الطاهرة مصفى مهنبا ، لا تتشعب
شعبتان الا كنت فى خيرهما » كما طالما اعترز بأصله
القرشى ، وباهى بأنه ابن امرأة من قريش تأكل القديد

وهذه الفطرة البشرية السوية فى رسولنا ، التى تعدها
الانسانية - كما قلت غير مرة - على اختلاف الاديان والاجناس ،
وعلى مر الأحقاب والأدهار ، من آيات عظمتة وأسرار بطولته ،

هذه الفطرة السنوية هي التي تجعلنا نرجع بالحديث عن أبوة «محمد» الى ماض قريب وبعيد، ملتجئين من صميم البيئة العربية منذ جاهليتها ، الاصول الاولى للابوة التي تجلت لنا في « محمد بن عبد الله » قبل مشرق الاسلام ، ثم بعد أن اصطفاه الله نبيا رسولا



والملاحظ الاول الذي ن سجله هنا ، هو أن المجتمع العربي في الجاهلية قد كان يخضع لنظام القبيلة ، وللأبوة في هذا النظام مقام جليل وشأن ذو خطر ، ذلك لأن القبيلة في أصلها لاتعدو أن تكون فروعا تكاثرت من جذر واحد هو الاب الذي تنتمي اليه . ثم ، بمضى الزمن تنمو الفروع فيغدو كل منها قبيلة مستقلة ، على نحو ما نرى في انفصال الخلايا الحيوية أو الاجتماعية عن أصلها الاول ، عندما تنهيا لها مقومات الحياة مستغنية عن ذلك الاصل ويحدث أحيانا ، وبخاصة في الاطوار البدائية ، أن تنتمي القبيلة الى الام ، وهو طور عرفته العربية في جاهليتها القديمة ، وبقيت منه آثار فيها حتى بعد أن تطورت الى الدور الابوي

وطبيعة هذا النظام ، تجعل شيخ القبيلة - الذي هو في الواقع أبوها الكبير - ملكا غير متوج ، وحاكما لا يعصى له أمر ، فمن حدثته نفسه بالخروج على سلطانه ، كان الخلع والطرْد والنَبذ من مجتمع القوم

وما بنا من حاجة الى التماس الشواهد على ما كان للاب من مكانة في الجاهلية العربية ، فما ذاك بالامر الذي يخفى،

ولنا أن نقول بعد هذا ان لقريش على وجه الخصوص ، أن
تدعى فضل تمثيلها لأعز ماعرف المجتمع العربى من تكريم
للأبوة ، ان كانت هى القبيلة التى ذهبت بأكثر ما للعرب
فى الجاهلية من أمجاد ، واجتمع لها من العزة والمنعة والجاه
والشرف ، ما لم يجتمع مثله لقبيلة أخرى غيرها . فلا ريب
أن اعتزت بالاصول والآباء ، وحرصت على نقاء النسب
وتخير الارحام ، وآية ذلك ما نرى من تسجيلها لنسب بطونها
وأفخاذها ، ماضية به الى آلاف السنين ، لم يفتها منه أم ولا
أب ، على مانعرف من صعوبة ذلك والأمية فيهم فاشية ،
والعهد بهم جد قديم . ولمن شاء أن يطعن فى صحة هذا
المروى عن سياقة النسب من قريش الى اسماعيل جندهم
الاعلى ، فلن نبذل جهدا لننفى شيئا من هذا أو نشبته ،
ولا علينا هنا أن نجادل المنكرين فى الذى زعموا من أن
سلسلة النسب هذه من صياغة الرواة واختراع كتاب
السيرة فى عصور متأخرة ، بعد الذى تم لقريش من مجد
الدهر باختيار الرسول العربى منها ونزول القرآن المعجز
بلسانها ، وانما حسبنا أن نقول ان حرص القوم على سياقة
النسب ، يحمل وحده دليل احتفالهم بالاصول وعنايتهم
بالاعراق ، وليس يضعف هذا الدليل أن تكون الانساب قد
اخترعت بأخرة ، بل ان هذا الاتهام - ان صدق - أبلغ
فى الدلالة على ما للأبوة من خطر فى تقدير القوم ، والا لما
عناهم قط أن يجهدوا أنفسهم باختراع سلاسل من الانساب
يسدون بها الثغرات التى تركتها أنامل الزمن فى تاريخ
العرب الطويل

والحق أن الاعتزاز بالأبوة كان أظهر ما يميز المجتمع

العربي ، وأن تكريم الآباء قد كان تقليدا متبعاً ، فمن ارتاب في هذا فليذكر أن العرب يبدأون تاريخهم الديني بقصة جدّهم الذبيح الذي جاد بالحياة طاعة لآبيه ، وتجنّبا له من ذنب عصيان الخالق ، ثم يختمون تاريخهم الديني في الجاهلية ، بقصة بنى عبد المطلب الذين ما ترددوا في طاعته يوم أخبرهم بنذره ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة ، لو بلغوا عشرة ، بل لبوا طائعين ومضوا يحملون قداحهم إلى الكعبة حيث وقفوا هنالك بجانب أبيهم الشيخ ، ينتظرون أيهم يكون الذبيح

ولنذكر كذلك أن العرب لم يجدوا ما يبررون به عبادتهم للاوثان بعد أن دعاهم محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى التوحيد ، إلا أنهم وجدوا آباءهم لها عابدين وما تقموا على « محمد ، صلى الله عليه وسلم » شيئا كما نقموا عليه أن شتم آباءهم وسفه أحلامهم وعاب آلهتهم ، بل أن « أباطالب » نفسه - عم النبي وكافله - ود لو تبع ابن أخيه ، لولا أن وجد غضاضة في مفارقة دين آبائه ، فقال معتذرا : « أي ابن أخي ، اني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك شيء تكرهه ما بقيت » - السيرة ٢٦٤/١

وكذلك فعلت العرب البائدة في سالف الحقب وغابر الدهور : ردوا رسلهم بمثل ما ردت به قريش رسولها ، فقوم عاد قالوا : « أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ »

وقوم شعيب قالوا : « يا شعيب ، أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ... انك لأنت الحليم الرشيد ! »

واتل عليهم نبأ إبراهيم « اذ قال لأبيه وقومه : ماتعبدون؟ قالوا : نعبد أصناما فنظل لها عاكفين . قال : هل يسمعونكم اذ تدعون ؟ أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون »

هم الآباء دائما : سنتهم عبادة ، ودينهم ميراث ، واتباعهم فرض محتوم



ونظام القبيلة ، الذى جعل للأبوة مثل تلك المكانة فى المجتمع العربى القديم ، هو نفسه الذى جعل العرب يتعلقون بالبنين ويحرصون على الانجاب ويباهون بكثرة الولد ، اذ كانت القوة والكثرة ، هما مناط العزة والمنعة ، وقوام الحياة فى مجتمع كهذا يقوم على التنافس بين القبائل والتزاحم على موارد العيش . فلا عجب أن صارت كثرة الولد نعمة ما بعدها نعمة ، كما صار تعدد الزوجات ظاهرة طبيعية لا غرابة فيها ولا شذوذ

ونذكر هنا - للمرة الثانية - حديث «عبد المطلب» جد الرسول ، وقد انتهت اليه سقاية الحجيج وراثته عن جده «قصى» فكان يلقي فى سبيل ذلك كل المشقة والعناء .

واذ يطيل التفكير فيما تناقله الرواة عن بئر زمزم التى طمرت تحت رمال الزمن ، تلح عليه الرؤى فى أن يمضى للتنقيب عن البئر المباركة التى بثت الحياة فى الوادى الأجرد ، منذ فجرها الله للجد الأعلى اسماعيل . فيمضى «عبد المطلب» ومعه ابنه الحارث وليس له يومئذ ولد غيره ، فما كاد يجيء بالمعول ويبدأ فى الحفر حتى قامت اليه قريش ،

تقسم ألا تتركه يحفر فى ذلك المكان الذى شئنا الإقذار أن
يقع بين الوثنيين الكبيرين : « اساف وفائلة » وأدرك عبد
المطلب أن قريشا إنما استضعفته لقله ولده ، فنذر لئن
ولد له عشرة أبناء ثم بلغوا معه بحيث يمنعونه ، لينحرن
أحدهم لله عند الكعبة ، ثم تلا ذلك ما هو ذائع معروف من
انطلاقه بنيه العشرة الى الكعبة ، وخرج السهم على عبدالله
- أصغر بنيه - فهم بذبحه لولا أن كان الفداء !

وأعود فأقرر هنا ما ذكرته آنفا ، من أن الشك فى حدوث
هذه القصة ، لاينفى بحال ما ، دلالتها الصادقة الامينة ،
على الاعتزاز بكثرة الولد فى مجتمع القبائل ، حيث لا أمل
لاحداها فى البقاء ، اذا لم يكن لها من أبنائها من يمنعونها
ويحمون حماها



ولا أريد أن أدع الحديث عن الابوة والبنوة عند العرب
الأولين ، دون أن أعرض هنا مشهدا أنسانيا مؤثرا ، سجل
به القرآن ما لعاطفة الابوة من سلطان قاهر لا قبل لبشر
بمقاومته - حين يدعو الواجب - ولو كان من الانبياء
المصطفين . ذلك هو مشهد « نوح » عليه السلام ، حين
وقف ومن اتبعوه فى سفينته وهى تجرى بهم فى موج
كالجبال ، ينادى ولده الذى اعتزله وأبى أن يصدق برسالته :
« يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال : سآوى
الى جبل يعصمنى من الماء . قال : لا عاصم اليوم من أمر الله
الا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل :
يا أرض ابلعى ماءك وياسمء أقلعى . وغيض الماء وقضى الأمر

واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين . ونادى
نوح ربه : فقال : رب ان ابني من أهلي وان وعدك الحق وأنت
أحكم الحاكمين . قال : يانوح انه ليس من أهلک ، انه عمل
غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم اني أعظک أن
تكون من الجاهلين . قال : رب اني أعوذ بك أن أسألك ما ليس
لی به علم والا تغفر لی وترحمنی أکن من الخاسرين . قيل :
يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك «
هود : ٤٢ : ٤٨

فيا للابوة الرحيمة تأبى أن تلعن الولد الكافر أو تبرأ
منه أو تدعو عليه

ويا للآيات المعجزة ، تأبى أن تجحد بشرية الانبياء أو
تبرئهم من نوازع الغريزة الابوية التي تولاهما لما قامت حياة
ويا للاله الكريم ، يصغى الى دعاء الاب للابن الضال ،
فلایجد - سبحانه - في هذا المظهر الانساني ما يستحق به نوح أن
ينحى عن مكانه كنبي يدعو الى الحق ، بل يكتفى بأن يعظه ،
ثم يأذن له أن يهبط بسلام من الله وبركات عليه وعلى أمم
ممن معه !

وسلام على ابراهيم اذ يدعو ربه : « رب اجعل هذا البلد
آمنا واجنبني وبنی أن نعبد الاصنام . رب انهن أضللن
كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني ، ومن عصاني فانك
غفور رحيم »



هل لنا أن نقول بعد هذا كله ، ان علاقة الآباء بالابناء في
المجتمع العربي ، بلغت من القوة مبلغا لا يعرفه مجتمعنا

العصرى الحديث ، الذى يميل بالتدريج نحو الانفصام ،
ويتخلى شيئاً فشيئاً عن تقاليده الموروثة فى الابوة والبنوة ،
فيعترف للآباء بحقوقهم فى تحديد النسل ، كما يعترف
للأبناء بشخصية كاملة الحرية والاستقلال ، بل ربما اعترف
لهم أحياناً بأنهم أحق بالحياة بما هم أصحاب الغد ، وعلى
الآباء أن يخلوا لهم الطريق ؟

وقلما يفتش مجتمعنا العصرى عن آباء الرجل وأجداده ،
بل انه ليميل الى تحطيم الفوارق الاجتماعية بين الطبقات ،
على حين كان المجتمع العربى يعتز بكرم الابوة وعراقة
الاصل وشرف المنبت ، ويرى فى هذا ومثله مدعاة للفخر
الذى ما بعده فخر



الإبوة العربية

فى الرسالة المحمدية ، وفى شخص الرسول

أشرق نور الاسلام ، حين اختار الله من بين العرب من
يبعثه بآخر رسالات السماء ، فبدأ منذ اللحظة الاولى ، أنها
تدعو الى نبذ دين الآباء ، وتعلن الحرب على الاصنام والاوثنان
التي ظلوا لها عاكفين

وما كانت قريش لتأبى أن تصفى الى فتاها الامين ، لولا
أن جوهر رسالته يقوم على التوحيد ، ولا يرضى بما دون
القضاء على الآلهة الموروثة عن الآباء :

« واذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نتبع
ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا
يهتدون ؟ »

على أن هذا لا يجوز أن يصرفنا عما حف بالإبوة فى الرسالة
المحمدية من جلال ، أو ينسبنا أن الاسلام جعل بر الوالدين
تاليا للتوحيد ، ولم يأذن للابن بعقوق الابوين حتى مع
الشرك ، بل أقصى ما يباح اذ ذاك هو ألا يطيعهما فى ذلك ،
دون أن يهدر حقهما عليه فى أن يصاحبهما فى الدنيا معروفا
وعرض القرآن كذلك للبثوة ، فصرح فى مواضع شتى
بأن البنين زينة الحياة الدنيا ، وعدهم من النعم الكبرى التي
أنعم بها على عباده :

« يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين
ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا »
« المال والبنون زينة الحياة الدنيا »
« ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ،
وبنين شهودا ، ثم يطمع أن أزيده ، كلا ! انه كان لآياتنا
عنيذا »
ويقال هنا ان القرآن الكريم حذرنا من الافتتان بالابناء ،
لما يعلم من اسرافنا في حبهم والتعلق بهم :
« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير
الممتلئة من الذهب والفضة »
« انما أموالكم وأولادكم فتنة »
لكن هذا التحذير ليس - في الواقع - الا اعترافا صريحا
بما للبنين علينا من سلطان تعز مقاومتهم ، وما لهم في قلوبنا
من حب قد يعمى ويصم



والعلاقة بين الابناء والآباء تأخذ في الرسالة المحمدية
وضعا ساميا ، بحيث لا يهدرها اختلاف الدين ولا يفصمها
تباين العقيدة ، وبلغ من تقدير القرآن الكريم لفرة هذه
العلاقة أنه في تحذير الناس من هول اليوم الآخر ، وصفه
بأنه اليوم الذي فيه « يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ،
وصاحبه وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه »
« يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم .
يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وترى الناس
سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد »

وقد تلقى محمد رسالة ربه ، فكان صلى الله عليه وسلم القدوة الصالحة للمؤمنين والمثل الأعلى فيهم ، وقد مضى بنظم حياة الجماعة الإسلامية بوحي من ربه ، ويضع لها التشريع الصالح على هدى الكتاب السماوى الكريم ، فرأى العرب من فعالة صلى الله عليه وسلم ، وسمعوا من أحاديثه ، ما لمس أعمت مشاعر الأبوّة فيهم ، واستثار أنبل ما فى نفوسهم التى جبلت على توقير الآباء ورعاية الأبناء

روى عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الكبائر : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس »

وقدم الرسول بر الوالدين على الجهاد فى سبيل الله : « جاء رجل الى صلى الله عليه وسلم فقال : جئت أبايعك على الهجرة وترك أبوى يكيان . فقال : ارجع اليهما فأضحكما كما أبكيتهما »

قد يقال هنا ان قلبه الرحيم رق لبكائهما ، لكننا نسمع أن رجلا جاء يسأل الاذن فى الجهاد ، فسأله الرسول : ألك أبوان ؟ قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد

وحدث الصحابى معاوية بن جاهمة السلمى قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، انى كنت أردت الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة . قال : ويحك ، أحية أمك ؟ قلت : نعم . قال : ارجع فبرها

» ثم أتيت من الجانب الآخر فقلت : يا رسول الله ، انى كنت أردت الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة ، قال : ويحك ، أحية أمك ؟ قلت : نعم يا رسول الله . قال : فارجع اليها فبرها

« ثم أتيته من أمامه ، فأعدت ماقلت ، فقال : ويحك !
الزم رجلها فثم الجنة ! »

نسمع هذا ومثله ، فنرى الإصرار النبيل على وضع البر
بالوالدين قبل الجهاد في سبيل الله ، ورفع الأبوة إلى منزلة
لاتساميها منزلة ، إذ تكون الجنة تحت أقدامها

عن أبي أمامة أن رجلا قال : « يا رسول الله ، ما حق الوالدين
على ولدهما ؟ قال : هما جنتك ونارك »

وانه لحق لا يهدره الشرك : قالت أسماء بنت أبي بكر رضى
الله عنهما : قدمت على أمي وهي مشركة في عهد رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، فاستنفتيته قائلة : ان أمي قدمت
وهي راغبة ، أفأصل أمي ؟ قال : نعم صلى أمك »

وكذلك لا ينقطع هذا البر بالموت : عن مالك بن ربيعة
الساعدي قال : بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم
إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقي
من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم ،
الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ،
وصللة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما »
وانما استحققت الأبوة هذه المنزلة السامية ، لما تبذل
وتحتمل في سبيل الأبناء ، ولما تمنح من حب صادق وحنان
خالص ، ولأنها في جوهرها بذل وتضحية وإيثار ، ورسول
الله في إنسانيته الرفيعة أكرم من يقدر هذا وينفعل به .
حدثوا أن سبيبا قدم على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة
« فإذا امرأة منهم قد تحاب ثديها ، إذا وجدت سبيبا في
السبي أخذته فالصقت به بطنها وأرضعته ، فقال النبي
صلى الله عليه وسلم لأصحابه : أترون هذه طارحة ولدها في

الذار ؟ قالوا : لا ، وهي تقدر ألا تطرحه . فقال : الله
أرحم بعباده من هذه بولدها »

وعن عبد الله بن عمر قال :

« كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته ،
فمر بقوم ، وامرأة فيهم تحصب تنورها ومعهما ابن لها ، فإذا
ارتفع وهج التنور تنحت به ، فأنت النبي صلى الله عليه
وسلم فقالت : أنت رسول الله ؟ قال نعم ، قالت : بأبي أنت
وأُمي ، أليس الله بأرحم الراحمين ؟ قال : بلى . قالت :
أوليس الله أرحم بعباده من الام بولدها ؟ قال : بلى . قالت :
فان الام لا تلقى ولدها في النار . فأكذب رسول الله صلى الله
عليه وسلم يبكي ثم رفع رأسه لها وقال : ان الله لا يعذب
من عباده الا المارد المتمرد الذي يتمرد على الله ويأبى أن يقول
لا اله الا الله »

وعن أبي هريرة قال : « أتت امرأة النبي صلى الله عليه
وسلم بصبي لها فقالت : ادع الله له فلقد دفنت ثلاثة . قال :
دفنت ثلاثة ؟ لقد احتظرت بحظار شديد من النار »

ولا أجد ما أتوج به هذا الفصل ، أفضل من قوله عليه
الصلاة والسلام : « لا يقاد والد بولده » فلقد سما بالابوة
الى حيث لا يجوز أن تتهم بقتل الولد عامدة أو مختارة ،
فالاصل في الاب أن يفتدى ولده بالمهجة والروح ، ومحال
أن يقتله الا في لحظة يغيب فيها عن وعيه ويفقد رشده ، أو
تحت وطأة ظروف فادحة ، تشمل ارادته وتخرجه عن ابوته
بل عن انسانيته ، وفي الحالين لا يكون مسئولا عن أبشع
جريمة !

الأنثى في المجتمع العربي

- ١ - كراهة الإناث
- ٢ - الموءودة
- ٣ - أمر من السماء
- ٤ - ونبي انسان !

كراهة الاناث

قلنا ان طبيعة نظام القبيلة ، قد حبت العرب الاقدمين في الانجاب وأغرثهم بالحرص على كثرة الولد . واذا قيل هذا عن البنين ، فالامر ليس كذلك بالنسبة الى الاناث ، بل هو جد مختلف : فما هن بحيث يمنع الحمى ويحمين الذمار ، ولا فيهن غنية حين يجد الجد وتتأزم الامور . وهن بعد ذلك هدف العدو اذا أغار ، يقصد هن أول ما يقصد فيكون السبي الذي يورث القبيلة الذل والقهر ، ويجللها بالعار

ومن أجل ذلك ، كرهوا أن تولد لهم أنثى ، وهى كراهة تتمثل فى صور شتى ، أهونها الغيظ المكبوت أو المعلن ، وأقساها الوأد . وقد سجل القرآن الكريم ذلك المشهد البغيض الذى كان ينتظر الانثى ساعة ولادتها ، بأسلوب يجل عن الوصف ويفوت البيان روعة وعنف اثارة :

« واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم - يتوارى من القوم من سوء ما بشر به : أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون » . سورة النحل آية ٥٧ : ٥٩

ووعى ديوان الشعر العربى ، ذلك النشيد الحزين لأم هجرها زوجها حين ولدت له أنثى :

ما لأبى حمزة لا يأتينا
غضبان ألا نلد البنينا
تالله ما ذلك فى أيدينا !

ومن مأثور قولهم لمن رزىء بأنثى :
« آمنكم الله عارها ، وكفاكم مؤنتها ، وصاهرتم القبر »
وما أكثر من رجوا لبناتهم هذا الصهر الرهيب ، ورأوا
فيه خير الاصهار ، قال شاعرهم :
لكل أبى بنت يرجى بقاؤها
ثلاثة أصهار اذا ذكر الصهر :
قبيت يغطيها، وبعل يصونها ،
وقبر يوارىها، وخيرهم القبر !
وأنشد آخر :

انى وان سيق الى المهر : ألف ، وعبدان وذود عشر
أحب أصهارى الى القبر !
وشاعت فيهم القولة المأثورة : « دفن البنات من المكرمات »



الموءودة

وما كنا لنعطيل الوقوف عند هذه الكراهة التى نراها
أثرا محتوما للبيئة ، لولا أنها تمثلت فى مأساة الوأد البشعة ،
التى ما تزال حتى اليوم تؤرق الضمير الإنسانى

ولقد قيل فى تعليل ذلك الوأد أسباب كثيرة : منها أنهم
كانوا يئدون الزرقاء والبرشاء والكسحاء تشاؤما منها ،
ويأسا من تزويجها وفيها عاهة

وآخرون ، وأدوا بناتهم خوفا من الفضيحة والعار

ويقال ان أول من فعل ذلك « لقمان بن عاد » من العرب
البائدة ، وذلك أنه روع بخيانته نساءه فراح يقتلهن انتقاما
واشتفاء ، واذ انحدر الى الطريق اثر المذبحة ، لقي ابنته
فوثب عليها وقتلها متأثرا بما جرب على النساء من خيانة
وسوء

ويذكرون كذلك فى هذا المقام قصة رواها غير واحد من
المؤرخين وأئمة المفسرين كالنيسابورى والزمخشري
والقرطبى ، وخلاصتها أن « النعمان بن المنذر » أغار على تميم
حين منعته الاتاوة ، فحاربهم وسبى نساءهم . ولما ذهب
قيس بن عاصم - شيخ تميم - ليسترد سباياه ، تخلفت
بنت له مؤثرة أن تبقى مع النعمان ، فعاد « قيس » وقد جن غضبه
فوأد كل بناته . ثم مضى على ذلك ، لا تولد له بنت الا وأدّها

واقتردى به رجال من تميم وغيرهم

ووأدوا كذلك رفقا بالبنات ورحمة بهن لما يعرفون من
عجز الانثى وقسوة الحياة عليها ، فآثروا لهن الموت ، على
التعرض لعوادي الزمن وأفاعيل الحداث ، واختاروا مرارة
الشكل وفجوعة الحزن ، على احتمال هم الانثى ، والقلق عليها ،
ومعاناة الكرب الذي صورته الشاعر في قوله :

وزادنى رغبة فى العيش معرفتى

ذل اليتيمة يجفوها ذور الرحم

أخشى فظاظه عم أو جفساء أخ

وكنت أبكى عليها من أذى الكلم

تهوى حياتى وأهوى موتها شفقاً

والموت أكرم نزال على الحرم

إذا تذكرت بنتى حين تندبنى

فاضت لعبرة بنتى عبرتى بدم

كما وصف ما ظفر به بعد موتها من راحة البال فقال :

فالآن نمت ، فلا هم يؤرقنى

بعد الهدوء ولا وجد ولا حلم

وقيل كان الواد بقية متخلفة من عبادة قديمة ، قدمت

فيها الاناث قرابين الى الآلهة ، على نحو ما عرف عن مصر

قبل الاسلام من تقديم عروس للنيل ضحية وقربانا . ولعل

هذا هو ما يشير اليه القرآن الكريم فى آيات عدة ، نعى فيها

على القوم أن يجعلوا لله البنات ويستأثروا بالبنين :

« ويجعلون لله البنات ، سبحانه ، ولهم ما يشتهون » .

« أم له البنات ولكم البنون ؟ » .

« أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا ؟ انكم لتقولون قولا عظيما »

كما عجب لهم : يحبون البنين هذا الحب ، ثم يسمون أصنامهم بأسماء اناث ، مستصفين لأنفسهم البنين :
« أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الاخرى ، ألكم الذكر وله الانثى ؟ تلك اذن قسمة ضيزى ! » النجم ١٩ : ٢٢
« ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثى ، وما لهم به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيئا » . النجم ٢٧ : ٢٨

ولو كان الامر فى مثل هذا يخضع للعقل والمنطق لأبوا أن يتعبدوا لأصنام تحمل أسماء اناث، لكنه التقليد الموروث والعادة المتبعة والانانية العشواء لاتدع لصاحبها عقلا، وما دام الناس من ذكر وأنثى ، فليتقاسموهما مع الله: لهم البنون ولله الاناث :

« فاستفتهم : الربك البنات ولهم البنون ؟ أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون ؟ ألا انهم من افكهم ليقولون : ولد الله ، وانهم لكاذبون — أصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون ؟ »

ووأدوا خشيعة فقر واملاق ، والرواة يذكرون فى ذلك مئات ممن استنقذهن « صعصعة بن ناجية » من الوأد لهذا السبب وحده . وأخريات فداهن « عمرو بن زيد بن نفيل القرشى »

فأما صعصعة ، فيقال ان أول ما كان من نهوضه بتلك المكربة ، أنه مر برجل من تميم يحفر حفرة ، وغير بعيد منه امرأة تبكى متشبثة بوليدة لها ، فلما سألها صعصعة

عما بها ، أشارت الى الرجل وقالت : هذا زوجى يريد أن
يئد ابنتى • وانثنى صمصعة الى الرجل يسأله : ما حملك
على هذا ؟

أجاب : الفقر

فافتداهما منه بناقتين يتبعهما أولادهما ، وعاش السيد
الكريم لا يسمع بموءودة عن فقر الا سعى فى فدائها ، فلما
مات ترك لبنيه مجدا خالدا ، باهى به حفيده الفرزدق قائلاً:
وجدى الذى منع الوائدات

وأحيا الوئيد فلم يوأد

أجار بنات الوائدين ومن يجر

على الفقر يعلم أنه غير مخفر

وكذلك حدثوا أن «زيد بن عمرو بن نفيل» ، كان اذا سمع
بفقر يهيم بوأد ابنته ، مضى اليه فقال : «لا تقتلها ، أنا أكفيك
مئونها » • فاذا كبرت عاد بها الى أبيها فراجعه فى أمرها ،
وخيره بين استردادها أو بقائها حيث هى فى كنف الذى
استحياها

قال ابن اسحاق فى السيرة :

« حدثت أن سعيد بن زيد بن عمرو ، وعمر بن الخطاب
- وهو ابن عمه - قالوا لرسول الله : أنستغفر لزيد ؟ قال :
نعم ، فإنه يبعث أمة وحده »

أمر من السماء

والوآد عن فقر ، هو الذى آثره القرآن الكريم بالذكر الصريح ، فى قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم وإياكم » . الاسراء ٣١ ، وقوله : « ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم وإياهم » . الانعام ١٥١

والقرآن فى هذا ، يمضى بالوآد الى سببه الاهم والأبعد ، ويتجه به الى التفسير الاقتصادى الذى هو أحدث نظرية فى فهم التاريخ ، سواء فى ذلك التاريخ السياسى ، والاجتماعى ، والفنى

فمهما تعدد الاسباب التى قيلت فى تعليل الوآد ، فمن اليسير ردها جميعا الى العامل الاقتصادى ، وتفسيرها واحدا بعد الآخر ، بالبيئة المادية : فوآدهم ذوات العاهات يفسر بخوفهم عليهن من البوار ، فيكن عالة على الآباء

والوآد تأثرا بعبادة قديمة ، يعطل اقتصاديا اذا ذكرنا أنهم خصوا الاناث به ولم يجودوا بالبنين الا فى حالات نادرة ، لانكاد نعرف منها فى العصور المتأخرة الا ما كان من نذر «عبد المطالب» ليزبحن أحد بنيه لله فى الكعبة ، اذا كملوا عشرة وبلغوا معه بحيث يمنعونه ، فهو كما تقول الرواية ، لم يرض أن يجود بأحد أبنائه ، الا بعد أن اشترط عددا معيناً من البنين ، وأن يبلغوا بحيث يمنعونه ، ومع ذلك لم تكذ

الشفرة تدنو من عنق الولد ، حتى قامت قائمة قريش وهبوا صائحين :

« والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه . لئن فعلت هذا ، لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ »

ومن ثم اتجهت القصة اتجاها آخر ، وانتهت بافتداء «عبد الله » من الذبيح بمائة من الإبل ، نحرث هنالك عند الكعبة ، وتركت لا يصد عنها انسان ولا سبع !

ولو أن الذبيح كان فتاة ، لما اهتمت قريش ، ولا عذاها الامر في كثير أو قليل ، وانما ريعت لأن ذبح ولد - ولو كان الذبيح زلفى الى الله ووفاء بنذر مقدس - يهدد القبيلة بخطر الفناء ، أو كما قالت لعبد المطلب : « فما بقاء الناس على هذا ؟ ! »

والرؤد خوف العار ، يمكن كذلك أن يرد الى سبب اقتصادي ، فالأغنياء يكرهون الاناث خوفا من تفتت ثرواتهم ، وهو بعينه السبب الذي جعل الواحد منهم يخلف على نساء أبيه أو أخيه ، احتفاظا بالمال ، أو تركيزا للعزة ، ودرءا لأسباب التصدع

وما وأدهم البنات خوفا من العار ، الا حماية لثرواتهم ومراكزهم وجاههم ، من مذلة السبى أو الزواج من غير كفاء ، ويبين هذا بوضوح ، في حديث «قيس بن عاصم» حين وفد على الرسول واعترف بأنه ما ولد له بنت الا وأدها ، فسأله أحد المهاجرين : فما الذي حملك على ذلك وأنت أكثر العرب مالا ؟ قال : مخافة أن ينكحهن مثلك ! قالوا : فتبسم

رسول الله وقال : هذا سيد أهل الوبر

هو العامل الاقتصادي اذن ، يرد اليه كل ما قيل عن أسباب الوأد فلا يتخاف سبب منها ، وعلى هذا مضى القرآن المعجز ، فخص هذا العامل بالذكر ، وفسر الوأد تفسيراً اقتصادياً ، راجعاً به كما قلت الى السبب الاول والابعد . . . ويصف لنا الزمخشري في «الكشاف ١٨٨/٤» كيف كان يتم الوأد : يخرج الرجل بوليده وقد حفر لها بئراً في الصحراء ، فيدسها هناك ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر . وقيل كانت الحامل اذا أوشكت على الوضع حفر حفرة ونقلت قريباً منها عندما يجيئها المخاض ، فاذا ولدت بنتاً رموا بها في الحفرة ، وان ولدت ذكراً أمسكوه وعادوا به .



تلك صورة بشعة غبراء لوضع الانثى في الجاهلية ، وليس بالغريب أن توارى بشاعتها أوضاعاً أخرى كريمة لبنات العرب كن فيها اذ ذاك موضع الاعزاز والحنان ، ولا من الغريب أن تغطي تلك الاخبار السود ، على أخبار أخرى مشرقة ، تحدث عما كان من ايثار بعض العرب لبناتهم بالحب ، وافتدائهن بالمهج والارواح ، وأن يظل الصدى الحزين الذي يرجع صراخ الموءودات ونواح أمهاتهن الشكالي ، يصدع سمع الانسانية ، بحيث تتوه فيه أصداً أخرى من مثل قول «معن بن أوس» وقد رزق ثلاث بنات :

رأيت رجالاً يكرهون بناتهم

وفيهن - لا تكذب - نساء صوالح

وفيهن والايام يعثرن بالفتى

عوائد لا يملكنه ، ونوائح

بل كدنا ننسى - فى غمرة الاسى لمأساة الواد - أن من
الآباء من كنوا بأسماء بناتهم ، كأبى أمامة النابغة الذبياني ،
وأبى الحسناء قيس بن مسعود الشيباني ، وأبى سلمى
ربيعة ابن رباح (والد زهير) ، وأبى عفراء حنظلة الطائي ،
وأبى سفانة حاتم طيء ، وأبى عزة عمرو بن عبد الله
الجمحي

وغاب عنا كذلك - أو كاد - أن من سادة العرب من
كرموا بمدح بناتهم ، وأن من هؤلاء البنات من استجير بها
فأجارت ، كبنات عوف الشيباني ، وفكيهة بنت قتاد التي
أجارت « السليك بن السليكة » فأثنت عليها فى شعره الشفاء
المستطاب



ويزيد فى فداحة المأساة وسوء أثرها وعنف صدها ،
أن قيل أن الواد كان عاما فى القبائل كلها ، على ما نقل
« الميداني » فى كتابه « مجمع الأمثال : ١ - ٣٨٩ » والنويرى
فى كتابه « بلوغ الأرب ٤٢/٣ » ، وإن أكد رواة آخرون ،
أن الواد لم يكن فى غير تميم وقيس وأسد وهذيل وبكر
ابن وائل ، وأنها جميعا تخلصت منه قبل الإسلام ، إلا تميم ،
فقد جاء الإسلام وفيها الواد لا يزال

ومن المحزن حقا ، أننا إذا استطعنا أن نجزم بأن الواد
لم يكن شائعا ولا واسع النطاق - وهذا لا يهون من بشاعته -
فلسنا بحيث نملك أن ننفيه عن أسلافنا العرب ، ولا نحن
بقادريين على الارتياح فى أمره وقد تواترت به الأنباء وسجله
عليهم كتابنا الكريم

كل الذى نملكه هو ان نفى عموم الواد ، ونابى القول
بأنه كان فى نطاق واسع ، والا كان ضربا من الانتحار الجماعى ،
والاستسلام المخبول للفناء والانقراض

على أننا لا نكتفى بهذا فى نفى عموم الواد ، بل نضيف
اليه أن هناك عوامل طبيعية واقتصادية كانت تعطل عملية
الواد على نطاق واسع

كان هناك الميراث القديم من عهد « الأمومة » تخلفت
بقاياها كما قلنا فى انتماء القبائل والأفراد الى أمهاتهم ، وفى
تسمية العشرة باسم « البطن » وفى تسمية الاصنام
والملائكة والآلهة بأسماء اناث ، وهذه البقايا المتخلفة كانت
تضفى على الأنثى لونا من القداسة ، وتعصمها من الإبادة ،
وان ظهرت أحيانا بمظهر مناقض ، هو واد الفتاة تأثرا - فى
رأى بعض علماء الاجتماع - بالطقوس الدينية القديمة

وكانت هناك غريزة حفظ النوع وما يتصل بها من
حرص على البقاء ، اتحمى بقوتها التى لا تدانيها قوة غريزة
أخرى ، بنات العرب من الواد قدر المستطاع
وكانت هناك انوثة فى حياة كل رجل : أما ، أو زوجة ،
أو حبيبة أو اختا ، تلتطف من النظرة البغيضة الى البنت ،
وتفسح أمامها مجال الحياة

ثم كان هناك الى جانب هذا كله ، يل قبل هذا كله ،
العامل الاقتصادى الذى يجعل البنت حين تكبر ، وعاء للولد
وصانعة للبنين ، ولئن كان العرب فى نظرتهم الجانبية الى
البنت قد اعتبروها كلا عليهم وعالة ، فلم ينتبهوا الى
الجانب الآخر ، وهى أنه لا سبيل الى ولد لا تحمله أنثى
جنينا وتغذوه رضيعا وتحضنه صبيا وتربيته غلاما وترعاه

رجلا ، الا أن الحياة كانت تسير بمقتضى أوضاعها الطبيعية ،
مقدرة ضرورة وجود البنت لبقاء البشرية وعمار الكون ،
غير معنية بما اذا كان القوم منتبهين الى هذا أو غير
منتبهين

ومن هنا رجحنا في اطمئنان ، أن الواد لم يكن عامما ولا
واسع النطاق ، وهذا ان لم يهون من بشاعة المأساة ، فلا
أقل من أن يلفت الى الجانب الآخر من حياة الأنثى في المجتمع
العربي بالجاهلية حيث عاشت الناجيات من الواد ، ملء
عيون القوم وقلوبهم . ومن شاء فليرجع الى الفصل الذى
كتبته عن « الأنوثة والأمومة » فى كتابى « آمنة بنت وهب »
ليقرأ بعض ما نقلت من أخبار تكريم الاناث وتقديرهن
واعزازهن والاعتراف بمآثرهن .

ولا غرابة فى أن تجمع البيئة الواحدة فى الزمن الواحد
بين النقيضين ، فتشد البنت كراهة لها أو لفرط حبها اياها
وخوفها عليها ، وتزهده فى ولادة البنت ، فى الوقت الذى
تفتدى فيه نساء القبيلة بالدماء ، وتضيق بينت تولد ،
مع أنها تسمونها « أما » الى حيث لا مزيد من التكريم
والاكبار . لا غرابة فى هذا ، فالحياة ما تزال تجمع بين
المتناقضات دون أن يختل نظام الكون أو يضطرب سير
الذلك . والامر فى واد الأنثى أو اعزازها ، مرده الى العادة
والعرف ، والى التقلييد الاجتماعى الذى لايعتمد على
شئ من التفكير ، وانما يتم بتوجيه الراى الجماعى دون أن
يكون للفرد مستقلا مجال للتفكير فيه ، ولذلك نرى فى الجماعة
عرفين متناقضين فى الوقت الواحد كالذى شهدنا فى البيئة
العربية القديمة من تسمية الاصنام بأسماء اناث ، وهذا

مظهر تقديس وتكريم ، ومن واد البنات زهدا فيهن وضيقا بهن ، وكالذى نشهده اليوم فى البيئة الرجعية المحافظة ، تعلم الفتاة وتأذن لها فى الخروج والاحتراف ، ثم تأبى فى الوقت نفسه على مخاطبتها أن يراها . وشبيه به ما نشهده فى المجتمع الشرقى ، يحرم على الفتاة المسلمة باسم المحافظة والدين دخول المعاهد الدينية ، ويأذن لها فى الانحياز بمعاهد الرقص والتمثيل . ويحدث أحيانا أن تطالب الجامعات من المتخرجات فى كلية الحقوق ، بمناسب القضاء فتثور ثائرة المحافظين وتأبى السلطات أن تستجيب ، متحرجة باسم الاسلام ، من ولاية الانثى المسلمة ، مع أنهم فى الوقت نفسه لا يحركون ساكنا اذ يرون من بنات المسلمين من تحترف الرقص أو تشتغل فى الملاهى الليلية أو تشرب الخمر علنا فى الحانات !

وانما يحدث هذا التناقض ومثله ، لأنها كما ذكرت مسائل تقليدية وليست منطقية ، يفعل الفرد فيها بشعور الجماعة ، ويتأثر بعقلية القطيع ، فيسيغ ما يباه عقله ، ويتحمس لتأييد ما كان زعيما بمعارضته لو نجا من احتكام العادة وسلطان التقليد واستهواء الراى العام



ونعود الى ما كنا فيه من حديث عن مركز الانثى فى المجتمع العربى ، فلا نملك بعد طول البحث والتنقيب عن الاخبار المروية فى اعزاز الانثى وتكريمها ، والتماس الادلة والشواهد المؤكدة بان مأساة الواد لم تكن عملية ابادة بالجملة ، اقول : لا نملك بعد هذا كله الا ان نعترف بان منزلة البنات كانت دون منزلة البنين

وكذلك غير العرب زمانا ومنهم من يدس وليسدته في
التراب ، ومنهم من يمسكها على مضض وهون ، ومن ثم
يبيت ساهرا عليها معنى بها ، حتى يدفعها الى زوج كفاء ،
أو يسلمها الى القبر خير الاصهار



وجاء الاسلام فوضع حدا للمأساة البشرية الفاجعة التي
جاوزت في بشاعتها اقصى المدى ، واول ما نزل من آياته
تعالى في الواد ، قوله عز وجل منذرا بيوم الهول الاكبر :
« واذا الموءودة سئلت ، بأي ذنب قتلت » التكوين ٨ ، ٩
ثم حكم بالخسران والضلال على السفهاء المفترين الذين
قتلوا اولادهم :

« قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم وحرموا
ما رزقهم الله ، افتراء على الله ، وقد ضلوا وما كانوا مهتدين »
الانعام ١٤

ثم نزل من بعد ذلك قوله تعالى في سورة الاسراء وهي
مكية :

« وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا . . .
ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ، ان
قتلهم كان خطئا كبيرا »

وقوله في آية ١٥١ من سورة الانعام ، وهي آية نزلت
بالمدينة :

« قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم : الا تشركوا
به شيئا ، وبالوالدين احسانا ، ولا تقتلوا اولادكم من املاق
نحن نرزقكم واياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها
يما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ، ذلكم
يصاكم به لعلكم تعقلون »

والمفسرون ، على ان قتل الاولاد فى الآيتين ، يعنى واد البنات . « الكشف ٢ - ٣٥٩ »



على ان تحريم الواد لم يكن ليمنع من الضيق بالبنات او يحول دون الزهد فيهن ، وقد جرت البشرية على ذلك من قديم العصور والآباد : فمن اعماق الدهر الاول ، بقى صوت نوح عليه السلام ، اذ يعد نعم الله على قومه فيؤثر البنين بالذكر قائلا :

« يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم باموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا ، مالكم لا ترجون لله وقارا »

ولم تنج من محنة الزهد فى ولادة الانثى ، « مريم »
العذراء المصطفاة على نساء العالمين :

« اذ قالت امرأة عمران : رب انى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى انك انت السميع العليم . فلما وضعتها انثى قالت : رب انى وضعتها انثى - والله اعلم بما وضعت - وليس الذكر كالانثى ، وانى سميتها مريم »

هى اذن نزعة قديمة فى البشر ، وعادة تأصلت على مر الزمن حتى صارت طبيعة فينا يعز التخلص منها ولو بعد زوال الاسباب الاولى التى دعت اليها ، والعوامل القديمة التى قضت بها فى اول الامر . فخرج المرأة الجديدة الى ميدان العمل ، وقدرتها على الكسب المادى ، واتاحة الفرص امامها لتظفر بأعلى المناصب وترقى فى « كادر الموظفين » الى اقصى الدرجات ، كل هذا ومثله معه ، لم يضع المولودة الانثى والوليد الذكر بمنزلة سواء ، ولا اعفاها ساعة ولادتها

من الاستقبال البغيض الذي تصوره الأغنية الحزينة
لذائعة على لسان الام :

لما قالوا داغلام انشد حيلي وقام
وجابوا الى البيض مقشر وعليه السمن عام
ولما قالوا دى بنيه اتهد ركن البيت عليه
وجابوا الى البيض بقشره وعليه السمن ميه
قد يقال هنا ان تغير الوضع الاقتصادي لا يمنع كراهة
لاننى خوف عار قد يلحق بأهلها من سلوكها ، او خشية
نمت مال الاسيرة عن طريق الميراث ، فردد على هذا بأن
بنات مكروهات حتى فى البيئات المتحللة التى لا تكثر
لسلوك ، وفى الاسر الفقيرة التى لا جاه لها ولا مال ، وما
اك الا لان كراهن ميراث قد انحدر اليها من قديم
حقب ، وعادة نشأت فى الاصل بحكم البيئة واثار العوامل
ادية ، ثم اخذت مجراها فى مشاعرنا على طول الزمن ، فلم
مد من السهل التخلص منها ، حتى مع تغير البيئة ، وزوال
بوامل المادية

والقرآن الكريم فى خبرته الفذة بطبيعة البشر ، وتقديره
حكيم لما تخضع له من شتى المؤثرات ، لم يرج من القوم ان
يروا فى مشاعرهم نوازع الوراثة العاطفية وسلطان الطباع
ن صنعتها البيئة المادية وحفرت مجراها فى نفوسهم على
ابع العصور وتعاقب الاجيال ، لكنه كذلك ، فى تساميه
نسائية ، لم يئأس من رياضة المسلمين على الرضابالبنات
نمايتهن من اثر الظلم والكراهية ، فتتابعت آياته الكريمة
ثة على اتقاء الله فيهن ، حاضرة على انصافهن ومساواتهن
نين قدر ما تحمل الطبائع والاوزاع

النبي الانسان

وما احسبني في حاجة هنا الى عد الحقوق الانسانية والشرعية والمادية التي حماها الاسلام للمرأة ، او بيان المنزلة الكريمة التي وضعها فيها ، فقد كثر القول في هذا منذ ظهرت الدعوة الى تحرير المرأة ، وكانت الشريعة الفراء هي النبع الاول الذي استمد منه دعاة التحرير ادلتهم واسانيدهم لدفع ما حاق بالمرأة الشرقية في العصور المتأخرة من ظلم ، وتحطيم الاغلال التي كبلتها باسم الدين والدين منها براء ، لكن يطيب لى مع ما اعرف ويعرف القراء من هذا كله ، ان اروي بعض ما قرأت من وصايا الرسول الكريم بالاناث ، واعرض هنا من حديثه معهن ، ما اراه تمهيدا طبيعيا للحديث عن ابوته لبنات اربع

نقل « البخارى » في صحيحه ، ان السيدة عائشة قالت : « جاءتنى امرأة معها ابنتان تسألننى ، فلم تجد عندى غير تمر واحدة ، اخذتها فقسمتها بين ابنتيهما ثم قامت فخرجت . فدخل النبى صلى الله عليه وسلم فحدثته بامرها فقال : من بلى من هذه البنات بشيء فاحسن اليهن ، كن له سترا من النار ،

وفي صحيح « مسلم » عن انس بن مالك انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عال جاريتين حتى

تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو (وضم أصابعه) «
 وفي سنن ابن داود عن ابن عباس قال : قال رسول
 الله صلى الله عليه وسلم : من كانت له أنثى فلم يئدها ولم
 يهنها ولم يؤثر ولده عليها - يعنى الذكور - ادخله الله الجنة»
 وروى البخارى كذلك حديث الصحابى الذى جاء
 يستأذن الرسول فى ان يوصى بماله للمسلمين ؛ اذ كان لم
 يرزق بولد ذكر ، ولم تكن احكام المواريث قد نزل بها
 القرآن بعد ، فسأله الرسول : هل له بنات ؟ فلما اجاب
 بنعم ، ابى عليه الرسول ان يوصى بماله وله بنات

وكذلك فعل الرسول مع امرأة من الانصار جاءت به ابنتين
 لهما فقالت : « يا رسول الله ، هاتان ابنتا ثابت بن قيس ،
 قتل معك يوم احد ، وقد استفاد عمهما مالهما وميراثهما كله
 فلم يدع لهما مالا الا اخذه ، فما ترى يا رسول الله ، فوالله
 لا تنكحان ابدا الا ولهما مال » فقال الرسول متأثرا : « يقضى
 الله فى امرك » وامهلها الى الغداة ، فنزلت آية المواريث ،
 فقال صلى الله عليه وسلم : ادعوا لى المرأة وصاحبها .
 فلما جاء قال لعم البنتين : « اعطهما الثلثين ، واعط امهما
 الثمن ، وما بقى فهو لك » سنن ابن ماجه ١٨/٤٨



وما رؤى اكرم منه قط فى معاملة الاناث والترفق بهن
 والانتصاف لهن ، ولقد يكفينى هنا ، ان اشير الى موقف
 نبيل ، لا اعرف ادل منه على مدى ما كانت الانثى تطمح اليه
 من عزة وكرامة فى كنف الرسول : عن عائشة رضى الله عنها
 ان فتاة دخلت عليها فقالت وهى بادية الانفعال والغضب :

ان ابى زوجنى ابن اخيه ليرفع بى خسيسته وانا كارهة .
فدعتها السيدة الكريمة لتجلس حتى يأتى النبى صلى الله
عليه وسلم

وجاء النبى ، وسمع شكوى الابنة ، فارسل الى ابيها
حتى اذا حضر ، جعل امر الفتاة اليها . فقالت وقد زال
عنها ما كانت تشعر به من غضاضة :

« قد اجزت ما صنع ابى ، ولكن اردت ان اعلم : النساء
من الامر شىء ؟ »

ولقد اجارت زينب بنت الرسول ابا العاص بن الربيع
عندما اسر بالمدينة قبل ان يسلم . واستأمنت « ام حكيم
بنت الحارث بن هشام » - عام الفتح - لعكرمة بن ابى
جهل ، فأمنه الرسول ، مع انه كان قد ذكر اسمه بين الذين
امر بقتلهم ولو وجدوا تحت امطار الكعبة . وفى صبيحة
يوم الفتح ، لاذ رجلان من بنى مخزوم ببیت ام هانئ بنت
ابى طالب ، فدخل اخوها « على » فى اثرهما فقال : والله
لاقتلنهما . فأغلقت عليهما باب بيتها ثم سعت الى الرسول
وهو بأعلى مكة ، فأخبرته خبر الرجلين من بنى مخزوم ،
واصرار اخيها « على » على قتلها ، فقال الرسول :

« قد اجرنا من اجرت يا ام هانى ، وامنا من امننت ، فلا
يقتلها » . السيرة ٦٠/٤

ثم كانت معاملة النبى للاناث ، على قرب العهد بالجاهلية ،
فوق الذى طمعن فيه او رنون اليه من عزة وكرامة ومروءة
وما من ريب فى ان البيئة كانت محتاجة الى هذا المثل
الصالح والقدوة الطيبة فى شخص الرسول الكريم لتقاوم

ما الفته في معاملة الاناث . ويكفى لنقدر تلك الحاجة ، ان
نسترجع هنا حديث عمر بن الخطاب :

« والله ان كنا في الجاهلية ما نعد للنساء امرا حتى انزل
الله تعالى فيهن ما انزل ، وقسم لهن ما قسم ، فبينما انا في
امر ائتمره اذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ؟ فقلت
لها : ومالك انت ولما هاهنا ؟ وما تكلفك في امر اريده ؟ فقالت
لى : عجبيا يا ابن الخطاب ، ما تريد ان تراجع انت ، وان
ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل
يومه غضبان ؟

« فأخذت ردائى ثم انطلقت حتى دخلت على حفصة
فقلت لها :

— يا بنية ، انك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه
وسلم حتى يظل يومه غضبان ؟
فأجابت :

— انا والله لنراجعه !

« ثم خرجت حتى دخلت على « ام سلمة » لقرابتى منها ،
فكلمتها ، فقالت لى :

— عجبيا لك يا ابن الخطاب ! قد دخلت في كل شيء حتى
تبتغى ان تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وازواجه ؟
« فأخذتنى اخذا كسرتنى به عن بعض ما كنت اجد »
وهذا الخبر وحده ، يغنينى عن مزيد من البيان لمدى
الحاجة القصوى في بيئة الرسول ، لمثل اعلى يروضها على
تغيير موقفها من الاناث ، فهذا عمر ، صهر النبى وصاحبه
الذى اعز الله به الاسلام ، قد تلا ما نزل من آيات الله في
النساء ، وكان من افقه المسلمين بالدين القيم ، ومع ذلك

كره ان تشترك معه زوجته في أمر له ، وانكر منها أن تشير عليه برأى ، فلما تمثلت بابنته حفصة ، استفزع واستنكر ، وانطلق اليها مغضبا يسألها فيما سمع وانه ليطمع في أن تجيب بلا ، لكنها اكدت له انها ، ونساء النبي ، يراجعنه ، فانصرف عمر عنها مغضبا لا يكاد يصدق اذنيه ، الى أن ردت « ام سلمة » بكلمتها التي تفيض عزة وابداء :

« عجباً لك يا ابن الخطاب ، قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وازواجه؟ » وتلقى « عمر » الدرس البليغ من بيت الرسول ، وكذلك تلقاه الصحابة والمسلمون ، فلا عجب أن رأينا « ابا دجاجة » الفارس ، يأخذ سيف الرسول في معركة احد ، وينطلق به مختالاً وقد عصب رأسه بعصابة له كانت تسمى عصا بة الموت ، فما يلقي احداً من المشركين الا صرعه ، حتى يبلغ « هند بنت عتبة » تزار في قومها محرصة على الفتك بالمسلمين ، فيضع الفارس السيف على مفرقها لكنه لا يلبث أن ينأى به عنها وهو يقول : « اكرمت سيف رسول الله ان اضرب به امرأة »



هذا هو « محمد بن عبد الله » في إنسانيته الرفيعة وبشريته المثالية ، وأبوته الرحيمة التي تفيض بأرق المشاعر وأنبل العواطف ، واحسب أن قد آن الاوان لتحدث عنه صلى الله عليه وسلم ابا لبنات اربع ، رزقهن جميعاً قبل أن يبعث رسولا ، وعشن حتى شاهدته في نضاله الأقداس ومعركته الظافرة الخالدة

الأخوات الأربع

- ١ - البيت والابوان
- ٢ - أبو البنات
- ٣ - الشقيقان
- ٤ - حب النبي لبناته
- ٥ - الشقيقات الأربع في بيتهن الاول

البيت والابوان

في جوار الحرم الاقدس ، حيث دور قریش حافسة
بالمسجد الحرام مستأثرة دون سائر القبائل بذلك الشرف
الاسنى ، قامت الدار التاريخية التى كتب لها ان تشهد
عرس محمد بن عبد الله الهاشمى ، وان تستقبله بعد خمسة
عشر عاما من العرس ، عائدا من غار حراء ، بعد ان تلقى
رسالة السماء

وهذه الدار قد ارتفع عنها الطريق ، فينزل اليها بعدد
من الدرجات ، توصل الى ممر قامت على يساره شبه
مصطبة مرتفعة عن الارض بنحو قدم ، وطولها عشرة أمتار ،
اما عرضها فاربعة

وعلى اليمين باب صغير ، يصعد اليه بدرجتين ، يؤدى
الى طريقة ضيقة عرضها نحو مترين ، وفيها ثلاثة ابواب :
يفتح اولها - من الجانب الايسر - على غرفة صغيرة
مساحتها نحو ستة أمتار ، كانت للنبي المختار محرابا
ومعبدا ، ويؤدى الباب الامامى الى بهو متسع طوله ستة
أمتار وعرضه اربعة ، وقد جعل مخدعا للزوجين ، اما
الباب الثالث فعلى يمين الداخل ، وهو يفتح فى غرفة
مستطيلة ، طولها سبعة أمتار وعرضها اربعة ، وقد جعلت
لبنات محمد . وعلى طول هذا المسكن من ناحية الشمال

فضاء واسع ، مساحته ستة عشر مترا في سبعة أمتار ، ويرتفع عن الارض بنحو متر ، وفيه كانت السيدة « خديجة » تخزن تجارتها قبل الزواج ، فلما تزوجت واعتزلت التجارة ، استعملت هذه الساحة مضيقة لاستقبال الضيوف

هذه هي الدار التي استقبلت محمدا - أول ما استقبلته - يوم اختارته السيدة خديجة ليخرج في مالها الى الشام متاجرا ، ثم استقبلته عائدا من رحلته ، حيث خفق له قلب سيدة نساء قريش ، واخذها منه بهاء طلعتة وجلال شخصيته ، حتى اذا كانت السنة الخامسة والعشرون من عام الفيل - ٥١ قبل المبعث - دقت الطبول في الدار ، احتفالا بزواج زين شباب قريش عفة وامانة وخلقا ، بالسيدة خديجة بنت خويلد بن اسد بن عبد العزى بن قصي ، سيدة نساء قريش واعظمن شرفا واكثرهن مالا وقضت مكة اياما وليالى ، ولا حديث لها الا عن ذاك الزواج المشهود . ولم تكن بهجة الحفل وحدها هي التي استأثرت بحديث القوم ، وانما اذهلتهم المفاجأة غير المنتظرة ، فما دار بخلد احدهم ان ترثب «السيدة خديجة» في الزواج من جديد بعد الذى عرف من زهداها في الرجال وانصرافها عنهم ورداها سادة قريش واحدا بعد الآخر ردا مؤثرا ، ولا خطر ببالهم ان يكون « محمد » - ابن الخامسة والعشرين - هو الزوج المختار للارملة الثرية ، ذات الاعوام الاربعين

واذا كان رجال من قريش قد نعموا يومئذ على العقيلة الغنية ، ان تؤثر عليهم شابا غير ذى مال ، فلعل بنات

هاشم قد تحدثن طويلا عن شبابه الغض ، تستأثر به سيدة
تزوجت من قبل مرتين ، وتصرفه عن العذارى الهاشميات ،
ذوات الصبا الندى والحسن النضير
على أن أحدا من هؤلاء أو أولئك لم يزعم - صادقا -
أن خديجة في عزتها وشرافها وثرائها ، غير كفاء لمحمد ، أو
أن محمدا في عراقة نسبه وطيب عنصره وجلال شخصيته ،
غير كفاء لخديجة ، وإنما أقصى ما قيل عنهما ، أنها كهلة في
الأربعين ، وأنه شاب فقير في الخامسة والعشرين



وحين ذهب أثر المفاجأة ولم يعد يجدى حديث عن فارق
السن والثروة بينهما ، كفت اندية قريش ومسامر مكة
عن ذلك الحديث العقيم ، وبدأت تستعيد ذكريات ماضية
أثارها المناسبة ، وتنفض عنها غبار السنين
وربما كان أول ما تذاكره القوم يومئذ ، قصة ابنة
عم لخديجة ، ثرية ناضجة ، اختارت هي الأخرى فتى
هاشميا فقيرا وعرضت عليه نفسها منذ ستة وعشرين
عاما ، وإن كان لم يستجب لها

تلك هي « رقية بنت نوفل » الأسدية ، أخت ورقة :
لمحت عبد الله بن عبد المطلب أثر انصرافه من الكعبة بعد
أن افتدى من الدبح وفاء لنذر أبيه ، فشامت عليه مخايل
مجد مرجو ، وعرضت عليه نفسها ، وله مثل الإبل المثة
التي نحررت عنه ، فاعتذر في تلفظ ، ومضى فتزوج أمية
بنت وهب ، فتاة آل زهرة

وهذه هي خديجة بنت عم رقية ، تتقدم بكل جاهها

وثرائها وعزتها ، الى ابن عبد الله ، تعرض عليه ان يتزوجها وعاش « ورقة بن نوفل » لسمع استجابة محمد لخديجة بنت عمه ، ويشهد حفل عرسهما ، بعد ان شهد بالامس البعيد انصراف عبد الله ابي محمد ، عن اخته رقية بنت نوفل

وحين كانت مسامر مكة في شغل بالحديث عن الزوجين السعدين ، كان « ورقة » يستعيد ما ذكرته له «خديجة» من وصف غلامها ميسرة لرحلته مع محمد في مالها الى الشام ، ويربطه بما سمع منذ ستة وعشرين عاما ، من كلام اخته رقية عن النور الذي رآته في وجه عبد الله ، فيكاد «ورقة» يلمح في صهره الشاب ، ملامح النبي المنتظر الذي شاع ان زمانه قد اظل ، ثم يصحو الشيخ من تأملاته فيقول :

لججت وكنت في الذكرى لجوجا

لهم طالما بعث النشيجا

ووصف من « خديجة » بعد وصف

فقد طال انتظاري يا خديجا !



وبدأت حياة زوجية هائلة يظلها الحب المتبادل والتقدير المشترك والمودة الخالصة ، ونهل الزوجان من نبع السعادة صافيا لم تشبه شائبة من كدر ، ثم لم يكد يمضي على زواجهما عام وبعض عام ، حتى بدت بوادر الثمر المبارك للزوجية السعيدة ، فخفق قلب « محمد » فرحا وغبطة ، اذ يوشك للمرة الاولى ان يغدر ابا ! واثارت الابوة المرتقبة

اعمق مشاعره ، وارق انفعالاته ، وهو مقبل على التجربة العظمى التى لا يكمل وجود الرجل بغيرها ، فعما قريب يشهد فلذة منه تخرج الى النور وتستقبل الحياة ، لتكون امتدادا لحياته ، وعما قريب يرى صورته ممثلة فى كيان صغير لطيف ، تتم به هذه السعادة التى عرفها منذ عرف خديجة

وذكر امه التى رحلت عن الدنيا وهو صبي فى السادسة ، وذكر ابيه الذى ثوى فى « يثرب » وولده ما يزال جنينا فى رحم امه آمنة بنت وهب ، فتعنى لو انهما عاشا ليفرحا بوحيدهما ويملاا اعينهما مر مولوده المنتظر

ولم ينس جده الشيخ عبد المطلب الذى كان له من بعد ابيه ابا ، فرق قلبه وهو يستعرض ذكرياته ، وتندت عيناه شجوا ورحمة ، ثم آب من تأملاته وراح يرقب زوجته الحبيبة وهى تروح وتغدو فى الدار بخطوات اثقلها الحمل الغالى ، ووجهها المشرق يتالق بسنا السعادة والحنان

لم تكن هذه تجربتها الاولى فى الامومة ، فقد ولدت البنين والبنات من زوجها السابقين : عتيق بن عائذ المخزومى ، وابى هالة التميمى ، فهل تراها كفت عن التشوق للأبناء ووجدت فى بنيتها : هند ، وهالة ، وعبد مناف ، ما يرضى امومتها ويغريها بالقناعة والاكتفاء ؟

معاذ الحب ان تقنع امومة خديجة بأبنائها الاولين ، فلا يشوقها ان يكون لها ولد من زوجها الحبيب : محمد بن عبد الله !

ومعاذ الفطرة السوية للألوثة الناضجة المجربة ، ان تزهد

خديجة في الابناء ، فلا تتلهف على ولد يؤكد حيويتها، ويثبت
أنها ما تزال فتية منجبة !

وكيف يظن بها الزهد في الولد ، وهي ترى زوجها العزيز
في ذروة فتوته ونضرة شبابه وقد بدأت هي العقد الخامس
من عمرها ، في بيئة تتزوج بناتها دون العاشرة ، وتكتهل
نساؤها دون الأربعين ؟

كلا ! فما كانت امرأة في قريش اشد لهفة على الحمل ،
من هذه السيدة التي جربت الامومة من قبل وكان لها بنون
وبنات . وما كانت هي نفسها ، في زواجها الاول او الثاني ،
بأشوق منها الى الولد في زواجها هذا الثالث والآخر ، اذ
كانت في المرتين الاوليين ، ابعد من ان تتهم بالجفاف او يظن
بها اليأس، أما في هذه المرة فالامل في الانجاب ابعد، والالتهام
باليأس قريب.

وما أرتاب في ان المخاوف ساورتها في مطلع حياتها
الزوجية الجديدة ، واشفقت ايما اشفاق من ان تمسك
رحمها فلا تجود بعقب لهذا الحبيب الذي لم يتزوج سواها
من قبل ، ولا عرف مثلها الولد

ولم يرعها أن تتمثل عجائز قريش وهن يتربصن بها الايام
ليملأن أشداقهن بالحديث عن كهولتها المجذبة وحيويتها
الناضبة ، ولا اهمها ان تتصور سيدات بنى هاشم وهن
يتأسفن على زين شباب الاسرة في حرمانه من الذرية ،
بقدر ما اهمها وراعها ان تكون عى السبب في هذا الحرمان،
وربما طاف بها طائف من القلق حين يكون زوجها بعيدا
عنها في بعض شئون العمل او التجارة ، فيذود النوم عن
عينها ويؤرق ليا ليها ، ولا تجد ما يسرى عنها الا ان تلوذ

بالسماء ضارعة الى الله ان يتم عليها نعمته ، ويهبها ولداً
من احب الازواج . وما تزال كذلك حتى يثوب اليها زوجها
العزير ، فتشعر بالحيوية تسرى اليها منه ، وتحس بنفحة
عطرة من شبابه تنسيها هواجسها التي شغلت بالها ، وترد
اليها ثقتها في نفسها ، واطمئنائها الى حيويتها المذخورة
الخصبة

فلما لاحت بوادر الحمل ، هز الفرح اعطافها فأقبلت
على زوجها مشوقة هائلة تزف اليه البشرى ، ثم بعثت
رسلاً يذيعون النبأ السعيد في دور بني هاشم ويثرونه
في احياء قریش ، واغدقت عطاءها على ذوى الحاجة، وكأنما
ارادت ان تشاركها « مكة » كلها في فرحتها ، فلا يبقى من
أهلها جائع ولا محروم



أبو البنات

واستمرأت متاعب الحمل واستخفت ثقله ، فظلت طوال
أشهره التسعة ، تعد دنياها لاستقبال الوليد ، وتختار له
المرضع قبل أن يولد (الإصابة ٦١/٨)

حتى إذا آن أوان الوضع ، واجهت التجربة - التي
تعرف شدتها وقسوة آلامها - في شجاعة فذة واحتمال
نادر ، على حين وقف الزوج في محرابه ، ينتظر اللحظة
الحاسمة بلهفة مشوبة بشيء من القلق ، لم يلبث أن تبدد
حين انبعثت من مخدع الوالدة ، صيحة رقيقة واهنة ،
معلنة قدوم الوليد السعيد

وتبعتها صيحات ابتهاج عالية ، سرت مع الهواء إلى
الحرم ، وبلغت أسماع الحى القرشى ، فعرف القوم أن
خديجة بنت خويلد ، وضعت مولودها الأول ، لمحمد بن
عبد الله بن عبد المطلب

ومضت فترة من الوقت والاب الكريم يرنو إلى مخدع
زوجته مستثار الشوق إلى رؤية الفلذة الحية من صلبه ،
ثم فتح باب المخدع على القابلة (سلمى : مولاة صفية بنت
عبد المطلب) تحمل إلى الاب طفله الأولى ، فتلقاها بين
ذراغيه فرحا ، ودنا بها من زوجته الراقدة في فراش
الوضع ، مسترخية الاعضاء من فرط الاجهاد ، بادية
الغبطة والهناء مع ذاك

وتلاقت أعينهما على وجه الوليدة الحلوة ، وخفق لها
قلباهما وهما يريان فيها صورتها معا
وسماها أبوها « زينب »
ونحرت الذبائح احتفالا بمولدها !



ترى هل مر ببالهما في تلك اللحظة خاطر مشترك ، هو
ان الله رزقهما بأنثى ، وليس الذكر كالانثى ؟
وهل ود كلاهما لو أن الوليدة كانت ولدا ؟
ربما ، فما من شيء كهذا بمستغرب من زوجين مثلهما ،
في فطرتهما السوية ، وتأثرهما الموروث بما جبلت عليه
بيئتهما من حب البنين . لكن ذلك الخاطر لم يكن بالذى
يعكر عليهما صفو الفرحة بسلامة الوضع ، فقد عظمت
حرارة ترحيبهما بمولد طفليتهما الاولى . وتشبثت الأم
بوليدتها اياما قبل ان تدفع بها الى الموضع المختارة ، على
المألوف من عادة أشراف مكة
وشغلا بالحديث عنها طوال فترة رضاعتها ، حتى عادت
اشبه بزهرة غضة باسمه ، أضفت على البيت مزيدا من
السنا ، وعطرته بأريجها الزكى



ولم يطل بها المقام في البيت ، حتى استقبل أختها « رقية »
فاتصل بها الامل في نماء الاسرة ، واعتدها الابوان الكريمان
بشرى خير وبركة

ثم جاءت من بعدهما « أم كلثوم » وكان الظن ان يضيق
الأبوان بمولد أنثى ثالثة ، في بيئة مفتونة بالبنين ، ولكنهما

ادركا ان الامر في هذا لله وحده ، وكرها ان يجحدا نعمته
عليهما فيبوءا بالخسران ، ومن ثم اقبلا على طفليهما الثالثة ،
شاكرين لله ما اعطى ، طامعين مع هذا في مزيد من كرمه



واقبل العام العاشر من زواج محمد وخديجة ، وهما
يستعدان لاستقبال الثمرة الرابعة للزوجية المباركة
وصادف مولدها ، حادثا جليلا في تاريخ الاب ، وتاريخ
مكة الدينى اجمع

فقد حدث قبيل ذلك بأمد قصير ، ان اجمعت قريش
امرها على ان تعيد بناء الكعبة ، بعد ان طال تردها في ذلك ،
تهيبا واشفاقا

وكانت الكعبة قد اضررت بها شرارة طارت من مجمرة
احدى النسوة ، فأحرقت ستائرهما وأوهت بنيانها ، ثم
انحدر سيل دافق من الردم الذى بأعلى مكة ، فتصدعت
الجدران المتأثرة بفعل الحريق ، ووقفت قريش أمام حرمها
الاقდس مكتوفة اليدين ، لا تدري ماذا تفعل لتحتفظ
بالبيت العتيق الذى جعل من «مكة» محج العرب جميعا
ومهى أفئدتهم ، وانزل قريشا بحكم جوارها للحرم ،
منزلة لا تدانيها منزلة قبيلة سواها

وبلغها اذ ذاك أن البحر رمى بسفينة رومية جنحت الى
جدة ، فسعى اليها رجال من قريش ، وعادوا بأخشاب
السفينة ، وبرجل مصرى نجار بناء

وتم الاستعداد لتجديد الكعبة ، وقريش ماتزال تهييب
ان تهدم بناءها الاول ، حتى قام « الوليد بن المغيرة المخزومي »

فاخذ المعول وقال : « اللهم لم نرغ ! اللهم انا لا نريد الا الخير ! » ثم اهوى بالمعول والقوم ينظرون اليه مرتاعين ، خائفين عليه وعلى انفسهم جميعا . فلما لم يصبه سوء ، ابوا مع ذلك الا ان يتربصوا ليلتهم تلك ، ليروا ماذا يكون . واصبح « الوليد » غاديا على عمله لم يمسه شر ، فهدم وهدم الناس معه

وتنافست القبائل في جمع الحجارة لبناء الكعبة ، وشارك «محمد» في ذلك العمل المجيد ، فكان ينقل الحجر مع الناقلين ، حتى اذا تم البناء ، اختصمت قبائل قريش في الحجر الاسود ، كل قبيلة تريد ان تستأثر بشرف رفعه الى موضعه . واشتدت الخصومة حتى اندرت بحرب ، ومكثت قريش على ذلك اربع ليال او خمسا ، ونذر الخطر تزداد ، حتى قام فيهم « ابو أمية بن المغيرة المخزومي » - وهو يومئذ اسن قريش كلها - فقال :

« يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه ، اول من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضى بينكم فيه » فقبلوا ، وتعلقت عيونهم جميعا بالبواب تنتظر الحكم المجهول ، وانهم لذلك ، اذ اقبل رجل شاب ، تام الفتوة ، متزن الخطا من غير تكلف ، رزين من غير فتور ، بهي الطلعة مع جد ووقار ، فهتفوا جميعا لما ان راوه :

« هذا الامين ، هذا محمد بن عبد الله الهاشمي ، رضينا بحكمه »

واقبلوا عليه فحدثوه بما اشتجر بينهم من خلاف ، فطلب ثوبا ثم تناول الحجر فوضعه بيده الكريمة في الثوب وقال :

« لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا »
ففعّلوا ، حتى اذا بلغوا به مكانه ، وضعه محمد بيده
ودعم بناءه

وكانت سنه يومئذ ، خمسا وثلاثين سنة ، على ما روى
ابن اسحاق (٢٠٤/١)



وآب « محمد » الى بيته ، حيث ترك زوجته في الغداة
على وشك الوضع ، وسعى الى الكعبة داعيا ، فكان أول
ما استقبله عند عودته ، بشرى مولد ابنته الرابعة « فاطمة »
واقترنت هذه البشري ، ببشري نجاة قريش على يد
الأمين ، مما كان يتهدها من حرب ودمار

وردت محافل مكة قول الشاعر القرشي :

تشاجرت الاحياء في فصل خطة

جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد

تلاقوا بها ، بالبغض بعد مودة

وأوقد نارا بينهم شر موقد

فلما رأينا الأمر قد جد جده

ولم يبق شيء غير سل المهند

رضينا وقلنا : العدل أول طالع

يجيء من البطحاء من غير موعد

ففاجأنا هذا الأمين محمد

فقلنا : رضينا بالأمين محمد

واقبل « محمد » على زوجته مهنا أياها بسلامة الوضع ،

ثم تلقى طفله الرابعة يبارك مولدها في ذلك اليوم الاغر ،

وكانما رأى فى ذلك الاتفاق ، آية من الله ، تحبب اليه رزقه ،
وتصرف سمعه عما كان يقال حينذاك عن أبوته لأناث
أربع !

وتطلع الى السماء شاكرا حامدا ، راضيا بما يأتيه من
عند الله ، مستثار الرحمة والحنان على تلك المخلوقات
اللطيفة البريئة ، يتلقاها القسوم كارهين ، وما جاءت الى
الدنيا مختارة ، ولا هى بمسئولة عن تخلف البنين !
ثم رنا الى زوجته فى عطف وتأثر ، يريد أن ييث فى
نفسها الطمأنينة والرضا ، وأن يهون عليها أمرا لا يد لها ولا
لأحد فيه ، وانما تلك ارادة الله ، سبحانه ، لا راد لأمره ،
ولا معقب على ارادته

لكن « خديجة » لم تكن فى حاجة الى مواساة ، فانها
ما كادت تملأ عينيها من وليدتها الرابعة ، حتى تفتح لها
قلبها وقد رأت فيها صورة طبق الاصل من أبيها !
فأدركت أن الله حبا هذه الوليدة بعناية منه ، حين براها
على مثال « محمد » العزيز ، فكان شبهها الغريب به ،
كافيا وحده لأن يحميها من سوء الاستقبال ، ويفجر لها
أسخى ينابيع الحب والاعزاز ، فى قلب هذه الام التى
اكتفت من دنياها جميعا بأن تكون زوجة محمد ، وأرضاها
كل الرضا ، أن تدخر لها السماء تلك النعمة الكبرى ، بعد
أن نفضت يديها من الرجال ، وأوصدت قلبها على بأس

الشقيقان

وبقى للأبوين - كى تتم سعادتهما - مطلب واحد ، أن يهبهما الله مولودا ذكرا ، بعد أن من عليهما باناث أربع وبدأ الأمل بعيدا ، إذ كانت السيدة خديجة قد جاوزت بعد مولد فاطمة سن الخمسين ، لكنها مع ذاك لم تكن قد بلغت مرحلة اليأس من الولد رغم السن العالية ، ولا خلفتها عاداتها الشهرية المؤذنة بصلاحياتها للحمل ، ومن ثم لم يقطع الزوجان الرجاء فى فضل الله

ثم استجاب الله لدعائهما فوهبهما غلامهما « القاسم » ثم تلاه « عبد الله » فتضاعفت الفرحه بمولده ، حين ظن أن لا رجاء

لكن الله لم يشأ لهما أن يعيشا طويلا ، بل ما لبث أن استرد الوديعتين الغاليتين ، أحدهما بعد الآخر أما متى ولدا ، وكيف وانى ماتا ، فالؤرخون وكتاب السيرة لم يتفقوا على قول واحد فى ذلك الامر مع ماله من أهمية قصوى فى حياة الاسرة المحمدية والتاريخ الاسلامى ، وعلى قرب عهد ابنى محمد ، بمبعث الاب الكريم

وأعجب من هذا ، أنهم اختلفوا فى عدد الذكور من أبناء محمد وخديجة ، وهل كانا اثنين ، أو كانوا ثلاثة ، أو أربعا فانذى فى السيرة (٢/٢) قول ابن اسحاق : « اكبر بنيه : القاسم ، ثم الطيب ، ثم الطاهر ... فأما القاسم

والطيب والطاهر فهلكوا في الجاهلية ، وأما بناته فكلهن
أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه »

وفي (الروض الانف : ١/١٢٣) رواية عن الزبير بن
العوام بن خويلد : « ولدت خديجة له القاسم وعبد الله ،
وهو الطاهر والطيب ، سمي بالطاهر والطيب لانه ولد بعد
النبوّة ، واسمه الذي سمي به أولا عبد الله
» وبلغ القاسم سن المشي غير أن رضاعته لم تكن كملت
عند ما مات »

وفيه كذلك ، في الموضع نفسه ، أن خديجة رضى الله
عنها : « دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد
المبعث ، وهي تبكي ، فقالت : يا رسول الله ، دوت لبننة
القاسم - تصغير لبننة ، تعنى بها بقايا اللبن في ثديها - فلو
كان عايش حتى يستكمل رضاعه لهون على . فقال الأب
الرسول : إن له مرضعا في الجنة تستكمل رضاعته .
قالت : لو أعلم ذلك لهون على . فقال النبي : إن شئت
اسمعتك صوته في الجنة . فأجابت : بل اصدق الله
ورسوله »

وعلى هذه الرواية ، يكون القاسم مات رضيعا في الإسلام
كأخيه عبد الله ، الذي لقب بالطاهر والطيب لمولده في الإسلام
على ما نقل عن « الزبير » ابن أخى السيدة خديجة

وفي الإصابة ، في ترجمة السيدة خديجة أم المؤمنين :
« فولدت له القاسم وعبد الله ، وهو الطيب والطاهر ،
سمى بذلك لأنها ولدته في الإسلام - ٦١/٨ »

وأيستوفيق بين هذه الروايات بمتعذر ، فيما يختص
بعدد أبناء محمد ، فقد التبس اللقب بالاسم ، وجعل
الطيب والطاهر ولدين مع القاسم فهم ثلاثة ، أو مع القاسم

وعبد الله فهم أربعة ، وما الطيب والطاهر - على الأرجح - سوى لقبين لعبد الله ، وبذلك يكون النبي من خديجة ولدان اثنان ، وهذا هو المختار عند جمهور المسلمين

أما فيما يتصل بوقت ولادتهما ووفاتهما، فالتوفيق فيهما أشق وأعسر ، فقد انفرد « ابن اسحاق » بالرواية عن موتهما في الجاهلية ، على حين ذكر غيره أن القاسم ولد في الجاهلية ومات في الإسلام ، وأما عبد الله فولد ومات في الإسلام ، وكان من الممكن ترجيح رواية ابن اسحاق ، إذ هو شيخ كتاب السيرة ، وكتابه أقدم مرجع بين أيدينا ، لكننا يحول دون الأخذ بروايته في طمأنينة ، أنه انفرد بها دون أسناد ، وأن الذين خالفوه ، ذكروا في سندهم « الزبير ابن العوام » وهو ابن أخت السيدة خديجة ، وأحد العشرة السابقين إلى الإسلام

وأيا ما كان الأمر ، فالذي لا ريب فيه أن البيت المحمدي لم تطل فرحته بولديه ، فقد ماتا طفلين قبيل المبعث أو في مستهله ، وأعلنا لو حاولنا أن نلتمس دليلا يؤيد هذا ، لوجدناه في « سورة الكوثر » حيث يقول الله تعالى لنبيه الكريم :

« أنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . أن شائك هو الأبر »

وسورة الكوثر ، مكية مبكرة ، فهي الخامسة عشرة في ترتيب تاريخ النزول ، بين السور المكية التي بلغت عدتها تسعا وثمانين سورة . والمتفق عليه أن الكوثر نزلت في « العاص بن وائل السهمي » ، أحد أشراف مكة الذين ساروا إلى أبي طالب يسألونه أن يرد ابن أخيه عن دعوته

وقد نقل « ابن اسحاق » في (السيرة ٢/ ٣٨) أن

العاص اشترى سيوفا من خباب بن الارت ، وكان قينسا
بمكة يعمل السيوف ، فجاء خباب - وقد اسلم - يتقاضى
العاص ثمنها فاستمهلته الى يوم القيامة قائلا في سخريه وقد
غره ما انعم الله عليه به من مال وولد :

« اليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذى انت على دينه
ان فى الجنة ما ابغى أهلها من ذهب او فضة ؟ فأنظرني
يا خباب الى ذلك اليوم فأقضيك هنالك حقك ، فوالله لا
تكون انت وصاحبك آثر عند الله مني »
فأنزل الله تعالى فيه :

« أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال : لأوتين مالا وولدا »
الى قوله تعالى : « ونرثه مايقول ويأتينا فردا »
وكان العاص - فيما نقل ابن اسحاق كذلك - « اذا
ذكر الرسول قال لقومه : دعوه ، فانما هو رجل ابتر لا عقب
له ، لو مات لا تقطع ذكره واسترحتم من ذكره » فأنزل الله
فى ذلك سورة الكوثر (السيرة ٢/٣٤)

ويقول « الزمخشري » فى تفسير آية الكوثر : « ان من
ابغضك هو ابتر لا انت ، لان كل من يولد من المؤمنين
الى يوم القيامة من المؤمنين فهم اولادك واعقابك ، وذكرك
مرفوع على المنابر ، وعلى لسان كل عالم وذاكر الى آخر
الدهر ، يبدأ بذكر الله ويثنى بذكرك ، فمثلك لا يقال له
ابتر ، وانما ابتر هو شائك المنسى فى الدنيا والآخرة ،
وان ذكر ذكر باللعن - الكشاف ٤/٢٣٧ »

وما نرتاب فى ان ذلك الشائىء ، لم يدر بخلده يوم غير
محمدا ، ان ذكر ابن عبد الله سوف يبقى خالدا عاطرا ماعبد
الله فى الارض

لقد كان اقصى ما يتصوره هو والمشركون من قريش ،
ان يستأثر حفيد عبد المطلب الهاشمى دونهم بالزعامة
فى مكة ، وربما امتد سلطانه الى القبائل القريبة المجاورة
فيبقى له الأمر ما عاش ، ثم ينقطع ذكره بموته ، أما أن
يمتد سلطانه من اقصى المشرق الى اقصى المغرب ، ويخلد
ذكره على مر العصور والآباد ، فذلك ما لم يكونوا يتصورونه
وقد عاشوا حتى ذلك الحين محصورين فى جزيرتهم
لا يكادون يخرجون عنها الا رحلا او متاجرين

وما كانت قرشية « محمد » الصميمة الخالصة ، لتهون
عليهم انتقال السلطان اليه ، فان المنافسة على اشرف بين
بيوت قريش كانت على أشدها

حدثوا أن الاخنس بن شريق الثقفى اتى ابا الحكم بن
هشام بن المفيرة فسأله : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت
من محمد ؟ فأجاب :

« ماذا سمعت ؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف :
أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا - يعنى الديات - وأعطوا
فأعطينا ، حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان
قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ! فمتى ندرك مثل
هذه ؟! والله لا تؤمن به أبدا ولا نصدقه » السيرة ٣٣٨/١
على أن النزاع بين بنى عبد مناف انفسهم لم يكن الا
شيئا بهذا أو امر منه ، فقد كان هناك البيت العشمى
والبيت الهاشمى ، يتنازعان ما استرده أبواهما « عبد
شمس وهاشم ابنا عبد مناف » من ميراث جدتهم « قصى »
الذى كان قد وصى بما بيديه من مناصب الشرف لولده
« عبد الدار » كى يلحقه بأخيه « عبد مناف » الذى شرف

في زمان أبيه وذهب كل مذهب ، وقد ظهر محمد بدعوته السماوية ، وفي بني هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة ، وفي بني عبد شمس بن عبد مناف اللواء ، ونذكر هنا مامر بنا من خبر قيام قريش في وجه « عبد المطلب بن هاشم » حين هم بحفر بئر زمزم ، كيلا يستأثر دونهم بهذا الشرف ، فهل تراهم تاركين حفيد عبد المطلب يظهر بدعوته نبيا ورسولا من السماء ؟

الى ذاك المدى بلغت المنافسة على الرياسة والشرف بين بيوت قريش ، فلا عجب ان بات القوم يتعللون بانقضاء ذكر محمد بموته ، ويقول قائلهم مهونا عليهم الامر : « دعوه فانما هو ابتر ! »

اما محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد كان يعلم ان الله بالغ امره ، وناصر رسوله ، ومخلد دعوته ، دون حاجة الى ولد من صلب الرسول المختار ، يرثها وينهض بها من بعده !



ولست باقائلة مع هذا كله ان محمدا تجرد من حب البنين ، فما كانت بشريته ، صلى الله عليه وسلم ، لتسمح له بذلك ، ولا كانت فطرته النقية السوية بالتى تجمد فيها اسمى المشاعر الانسانية وتنزع منها غريزة كهذه يرتهن بها حفظ النوع وعمران الكون

ولقد فاضت عاطفة أبوته على اثنين كانا له بمثابة الولد : اولهما على بن أبى طالب ، وكانت قريش قد اصابتها ازمة شديدة وابو طالب ذو عيال ، فقال محمد لعمه العباس اغنى بنى عبد المطلب :

« ان أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الازمة ، فانطلق بنا اليه فلنخفف عنه من عياله : آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا فنكلهما عنه »
ووسع محمد لابن عمه على مكانا في بيته ، وفي قلبه ، ثم زوجه ، بعد الهجرة ، من الزهراء ، أصغر بناته وأحبهن اليه

اما الثانى فزيد بن حارثة الكلبي ، وكانت أمه سعدى بنت ثعلبة الطائي ، خرجت به صبيًا لتزيره أهلها في طييء فأصابته خيل من بنى النقيين بن جسر فباعوه بسوق حباشة ، واشتراه حكيم بن حزام بن خويلد ثم قدمه الى عمته خديجة التى وهبته لزوجها قبل المبعث ، فأعتقه وتبناه ، وأذاع فى الملاء من قريش انه ابنه وارثا وموروثا ، فصار يدعى زيد بن محمد ، حتى جاء أمر الاسلام : « ادعوهم لأبائهم » فدعى زيد بن حارثة ، وظل مع ذلك اثرا عند الرسول مقربا منه عزيزا عليه !



وقد ظل محمد - صلى الله عليه وسلم - حتى أخريات أعوامه يشواق الولد ويلتمس الوسيلة اليه ، حتى اذا وهبه الله على الكبر غلاما ، امتلأت نفسه الكبيرة غبطة وهناءة وفرحا ، لولا أن الله لم يمهّل « ابراهيم » غير ثمانيسة عشر شهرا ثم قبضه اليه ، فحزن الاب الشاكل لفقده أشد الحزن ولم يكتفِ اليه ، ولا ملك دموعه ، وان ظل على الحزن مستسلما لقضاء الله الذى شاء لحكمة سامية الا يكون لمحمد فى تلك البيئة المفتونة بالبئين ولد ذكر ، وان دان برسالتة ملايين البشر فى مشارق الارض ومغاربها

حب النبي لبناته

آن لنا أن نستأنف الحديث عن بنات محمد ، اللواتي كتب لهن أن يعشن دون اخوتهن من البنين ، وأن يتزوجن جميعا في حياة أبيهن العظيم ، كما كتب عليه أن يشكل ثلاثا منهن في عز شبابهن ، ولا يبقى له غير فاطمة الزهراء

ولا نعلم أن احدا ممن عاصروا محمدا وحاربوه نبيا رسولا ، قد جحد حب محمد لبناته جميعا ، أما أعداء الاسلام المحدثون من المستشرقين ، فيؤبون ان يصدقوا انه احب بناته ذلك الحب الغامر الذي يبدو لهم شاذا ، وقد ركزوا حملتهم بوجه خاص على الانبياء المستفيضة بحب الرسول لفاطمة ، زاعمين - كما سنرى بعد في الفصل الخاص بالزهراء - انها انباء اخترعت بعد عهد الرسول بزمان ، عندما ظهرت فكرة التشيع !

ولا نتعجل الآن الرد على ذلك الزعم الباطل ، وانما حسبنا - مؤقتا - ان نقدر حين نذكر حب محمد لبناته الاربع ، اثر السيدات الثلاث الكريمات اللواتي دخلن في حياته قبل ان يغدو ابا : أمه آمنة بنت وهب ، وقد ظل ما عاش يذكرها ويأسى لفقدائها ، وفاطمة بنت اسد بن هاشم ، زوجة أبي طالب التي كانت له من بعد أمه أما ، والتي سمع رسول الله يقول انه لم يجد أبر به منها بعد

أبى طالب ، وخديجة بنت خويلد ، زوجته الحبيبة التى
أنسته مرارة يتمه وحرمانه ، وملأت دنياه حبا وحنانا
وطمأنينة وسلاما

ثم لماذا لا نقول ان الله أراد ان يروض الرجل الذى سوف
يصطفيه نبيا ، على احتمال ابوة الانوثة والصبر عليها ،
كما يعده للرسالة الخطيرة التى سوف يعهد اليه بتبليغها ،
وكى يعلمه الاعتداد بالذات ، وعدم الاستنصار بالولد ،
الأربع ، أثر السيدات الثلاث الكريمات اللواتى دخلن فى
المستضعفة التى تشبه القوارير !



الشقيقات الاربع

خرجن الى الدنيا فى اكرم منبت ، وأنبتتهن سلالة قرشية
عريقة اصيلة ما يعرف العرب احز منها ولا انقى ، واستقبلهن
البيت الكريم استقبالا لم تظفر بمثله لداتهن ، فقد كن
ثمرة زواج سعيد قام على الحب المتبادل والمودة الخالصة ،
يرى فيهن الاب صورة لطيفة من زوجته الحبيبة التى
انسته بحنانها الغامر كل ماذاق فى طفولته من يتم ، وكانت
له عوضا جميلا عما قاسى من حرمان

وتجد فيهن الام ، فلذات حية من رجلها العزيز الذى
بهرها منذ عرفت به بجلال طلعتة ، واسرها بنبل شخصيته ،
وفتنها بجميل خصاله ، فتفتح له قلبها واقبلت على
الحياة من جديد

وكانت طفولتهن سعيدة ناعمة ، لم ترهق بشسطف
العيش ، ولا اذبلها الحرمان

ودرجت حياتهن الاولى على ما نعرف من تقاليد البيوت
القرشية العريقة ، فالتمست لهن - واحدة بعد الاخرى -
خير امراض بعيدا عن حر مكة الخائف وقيظها المنهك ،
حتى اذا ادركن سن الفطام عدن الى حضانة الام التى كانت
لهن خير مربية ، وقد نفضت يديها منذ تزوجت «محمدا»
من كل ما كان يشغلها من شئون التجارة ، وترك الزوج

الامين الاشراف على استثمار ثروتها الواسعة ، واقبلت هي بكل كيائها تشرف على دنياها الجديدة ، غير ملقية بالاالى ما وراء جدران بيتها السعيد

واكسبتها تجربتها السابقة فى الامومة ، خبرة بحضانة الصغار ودراية بتربيتهم ، فأسرعت فتياتها الى التموييفضل ما تهيأ لهن من رعاية مثالية ، وتفتح صباهن كما يتفتح الزهر فى المنبت الطيب ، واذا كانت ثروة الاسرة قد اتاحت لها استخدام من تشاء من الجوارى والغلمان ، فالحق ان عمل هؤلاء لم يكن يتجاوز شئون الخدمة الى حضانة الاطفال ، اذ حرصت السيدة خديجة على ان تتولى بنفسها تلك المهمة العظيمة ، كيما تعد بناتها للمستقبل المرجو لهن ، ومافى مكة من تدانيهن شرفا ونعمة

حتى اذا شبت كبراهن « زينب » عن الطوق ، يادرت امها بتمرينها على المشاركة فى لعب الباهظ الجليل ، واخذتها مبكرة مأخذ الجد ، ونأت بها عما يشغل لداتها واترابها من عبث الطفولة ولهوها ، فكانت « زينب » لشقيقتها الصغرى « فاطمة » اما صغيرة ، ترعى شئونها وتمضى فراغها فى ملاعبتها ، كيما تعفى امها من بعض مشاغلها وقد علت بها السن وجاوزت الخمسين من عمرها وقرب هذا الوضع ما بين زينب وفاطمة ، كما اوجد تقارب السن الفة خاصة بين الاختين رقية وام كلثوم ، فكانتا رفيقتين متلازمتين ، يجمعهما اللعب المشترك والفراش الواحد ، والطباع المتشابهة ، والسمت المتماثل ، حتى لكانهما توامان !

وصارت حياة الشقيقات هكذا رخيّة هائلة حتى تزوجت
كبراهن زينب، فافتقدتها اخواتها وشعرن بالوحشة لغيابها ،
ولبثن ليالى عديدات ينظرن الى فراشها الخالى فيخامرهن
احساس مبهم يختلط فيه الفرح بالاسى ، ودار سمرهن
طوال هاتيك الليالى ، حول الزواج ، وقد اعياهن ان يدركن
كنه هذا النظام الذى ينتزع الفتاة من أحضان أسرتهن، ويلقى
بها وحيدة الى رجل قد يكون غريبا أو شبه غريب !

وكانت صفراهن فاطمة ، بحكم طفولتها ، اجهلهن لحكمة
الزواج واشدهن سخطا عليه ، فما أرضاها قط ان يبعدوا
عنها « امها الصغيرة » التى طالما لاعبتها ودلتها واعتنت
بها ، وانها لتسائل اختيها كيف هان على الاسرة ان تستقبل
حادثا كهذا ، بالفرح المعلن ، وتحتفل به فى بهجة وسخاء ،
وكان أولى بها ان تتمسك بزينب أو لا فلتودعها كارهة ،
بغير احتفال

وتحاول رقية - متأثرة بشعورها ان الدور عليها - ان
تهون الامر على اختها الصغرى فاطمة ، وان تقنعها ان
ابويها ما كانا ليسلما « زينب » الى زوجها فى احتفال
بهيج كالذى كان، لولا ثقتهما ان فى هذا خيرها وسعادتها
لكن فاطمة تصر على رأيها فى الزواج ، حتى يبدو لام
كلشوم ان تدلى برأيها فتقول لاختيها :

- من يدري ؟ لعل هذا الفرح مفتعل ، ولعل ضجة
العرس انما قصد بها شغل العروس عن التفكير فى قسوة
التجربة الجديدة التى تواجهها بالانتقال من مهد حداثتها
ومرتع صباها

واذ تحس من اختها « فاطمة » بوادر الاقتناع ، تمضى

مزهوة برايتها ، فتلفت نظر أختيها الى ما بدا على أمهما
بعد فراق زينب من شجو تحاول أن تكظمه ، فتلفت منها
بوادر واشية به دالة عليه

ثم تسألها :

— اما سمعتها غير مرة تنادي « رقية » باسم « زينب »
ثم تنبّه فجأة ، فتستدرك بصوت رقيق حالم : ويحيى !
لقد نسيت أن زينب لم تعد هنا !
فتردد فاطمة في أسي :

— هو ما تقولين

اما رقية فتجيب :

— « انك تبالفين يا أم كلثوم ، فالواقع أن امنا قد الفت
ان تنطق باسم زينب ، وليس في سبق لسانها بهذا الاسم
ما يستغرب ، وانما هو حكم الالف وسلطان العادة
ولكن « أم كلثوم » تستطرد قائلة دفاعا عن وجهه
نظرها :

— فما قولك اذن في أبينا ؟ أو ما تلاحظين عليه منذ حين
انه يأنس الى الخلوة ويميل الى الوحدة ويجنح الى الصمت
والتأمل ؟ أو ما يبدو عليه في هذه الايام انه مشغول البال
بهم يطويه ؟

فهمت « فاطمة » وهي تنتفض حبا وحنانا :

— يا لابی العزيز ! انه لكما ذكرت يا أم كلثوم

وقالت رقية :

— وما يدريكما ان لفراق « زينب » صلة بميل أبينا

الى العزلة ، وشغفه بالخلوة ؟

فهزت « أم كلثوم » رأسها وهي تقول بلهجة ذات مغزى :

— ما أراك يارقية إلا تعدين نفسك لمثل مصير زينب ،
وقد جاء دورك !

فردت « رقية » في غير انفعال :

— ما خطر لى هذا يا اخت ببال
وعقبت فاطمة :

— فلتتزوجا انتما وليبارك الله لكما ، أما انا فلست بتاركة
أبوى ما استطعت الى ذلك سبيلا
ولم تدر « فاطمة » وهى تلقى هذه العبارة أنها كانت
تنطق بلسان القدر !

فما مضى على زواج « زينب » غير قليل ، حتى خطبت
أختها رقية وأم كلثوم ، وبقيت هى فى بيت أبيهسا ،
ما استطاعت الى ذلك سبيلا



الى هنا ينتهى الفصل الاول من حياة الشقيقات الاربع،
بانتهاى حياتهن المشتركة فى بيت أبويهن ، ويبدأ فصل آخر
نرى فيه كل واحدة منهن وقد واجهت دنياها الجديدة
واستقلت بحياتها الخاصة ، فلنحاول أن نتبع كلا منهن
على حدة ، لنصحبها فى ذلك الدور الثانى من حياتها ،
ونرى ما فعلت بها الايام ...

زنيب الكبرى

العروس الهاشمية - ابن الخالة -
سعادة لم تطل - ليل لا يبدو له
آخر - الأسير والقلادة - مسلمة
ومشرك - طارق بليل - الفراق
الأخير - ذكرى !

لم تكن قد تجاوزت العاشرة من عمرها حين رنت اليها
عيون الهاشميين ، وتنافسست بيوتات مكة على الظفر بها
عروسا لمن يختاره لها أبواها من كرام الفتية القرشيين
ولكن واحدا منهم ، لم يكن له من الامل فى الزواج من
« زينب » مثل ما لابن خالتها « أبى العاص بن الربيع » أحد
رجال مكة المعدودين شرفا ومالا ، فلقد أتيحت له فرصة لم
تنح لسواه ، اذ كانت خالته « السيدة خديجة » تنزله منزلة
الابن ، فتهيا له بذلك أن يغشى بيت محمد كلما أراد ، فيجد
من الترحاب البالغ والود الصادق ، مايطمعه فى أن يكون
الزوج المختار لزينب ، تلك التى خفق لها قلبه منذ حدوثها
الباكرة ، فراح يرمقها وهى ترقى سراعا فى مدارج النمو ،
وتتفتح للصبا ملء البهاء والاشراق

وكان مكانها فى بيت أبيها ، ككبرى بنات أربع ، قد
أسرع بها الى النضوج قبل الاوان ، بما ألقى عليها من عبء
المشاركة فى حضانة أخواتها ، مع الام الكريمة التى كانت
حينذاك قد تجاوزت عامها الخمسين ، وأجهدها بلا ريب
مشاق الحمل والوضع المتتابع دراكا فى العقد الخامس من
عمرها ، فأضفت هذه المشاركة على « زينب » طابع الانوثة
الناضجة ، ولما تزل ندية الصبا غضة الالهاب

وكان « أبو العاص » يراها كلما ألم ببيت خالته ، فيؤخذ
بجلال مرآها وعدوبة حنانها وذكاء ملامحها ولطف طباعها
وتفتح أنوثتها

وكانت مشاغلة الجسم تمسكه أحيانا عن الالمام ببيت
خالته ، وبخاصة فى المواسم الكبرى حين تزدحم مكة بأفواج
الساعين اليها من الحجيج والتجار، كما كانت رحلاته التجارية
المتصلة ، الى الشمال والى الجنوب ، فى الشتاء والصيف ،
تحبسه عن البلد الحبيب فترات قد تمتد وتطول حتى تبلغ
احداها أشهراً ذوات عدد ، وربما لقيته فى بعض هاتيك
الرحلات ، نساء وفتيات ، من ساحرات البادية ، وفاتنات
اليمن ، وجماليات الشام ، لكنه كان أبداً يرنو الى مكة على
البعد ، خافق القلب مستثار الحنين، ويستصحب معه أنى
سرى وحيثما سار ، طيفا من تلك الصبية الرقيقة الوديدة،
التي يتألق وجهها بابتسامة حلوة ، وتفيض ملامحها بعذوبة
أسرة ساحرة

ولم يغب عن باله قط أن الفتية الامجاد من آل هاشم
يرنون الى خطبتها ، لكنه كذلك كان يعرف فرصته ويطمئن
الى موافاة حظه ، فليس بين منافسيه جميعاً من تتاح له
مثل مكانته فى بيت محمد ، أو تتهيأ له فرصة التلطف فى
كسب ود « زينب » والوسيلة الى الظفر باعجابها وتقديرها
وأبت عليه ثقته فى نفسه أن يدخل مع منافسيه فى
معركة مكشوفة ، بل اكتفى بأن يودع سره الغالى لدى خالته
الرءوم ، وانصرف مطمئناً ، الى تدعيم مركزه وبناء مجده ،
ليكون لزيب نعم القرين

وكذلك أبت عليه فطنته أن يحاول كسب عواطف فئاته
فى عجلة ، أو أن يطرق باب قلبها البكر فى عنف، فهى على
نضجها واتزانها ما تزال الصبية الغريرة الخجول ، وأى تسرع
فى الكشف لها عن حبه قد يخذش حياءها العذرى ويجرح

براءة صباها ، وهو ما كان ابن الحالة يخشاه ويتقيه
وقد كلفه هذا الموقف جهدا غير قليل ، وفرض عليه قيودا
ثقالا من الكبت والحرص والحذر والتأني ، ولكنه في الوقت
نفسه ، جعل « زينب » تطمئن اليه وتأنس له في غير حذر
ولا تحرج ، وقد بان لها من مخايل رجولته التي أنضجتها
التجربة والرحلة ، ماجعلها تعتز به أختا ، ولا ترى في فتیان
قريش من يوزن به قوة شخصية وسعة خبرة ، وان وزنوا
به أصالة ونسباً ، وربما مالا كذلك

وقد اعتاد « أبو العاص » أن يجعل بيت محمد قبلته بعد
الكعبة كلما آب من سفر ، فكانت « زينب » ترتاح الى محضره ،
ويطيب لها أن تصفى الى مافى جعبته من طرائف وغرائب
التقطها من مدرسة الاستفار ، وكأنما كانت ترى في وعيها
لحديث رحلاته ، وفهمها لكلامه عن الدنيا والناس ، آية
رشدها الذي تميزت به عن لداتها وأتراها

وربما جاءها في بعض أوباته من الرحلة بحلية جميلة أو
هدية مناسبة ، فتتلقاها في بشر حلو ، وترى فيها تحية
جميلة لما يربطهما من أواصر المودة والقربى

وهكذا تفتح له قلبها البكر على مهل ، فأحست تلك اللمسة
الرقيقة الساحرة تحرك وجدانها في رفق ولطف ، وكانت
أما الى جانبها ترقب هذا التفتح بعين ساهرة لاتنام ، وقد
أرضاهما بلا ريب أن يظفر « أبو العاص » بقلب « زينب »
والا فما كانت خديجة بالتى تفرضه على ابنتها لو أن قلبها
ظل مغلقا دونه

و«خديجة» قد عرفت الحب الطاهر وتذوقت من رحيقه
العذب ، وخرجت من تجربتها العبقريّة الفذة - التى بدت

فى حينها أشبه بمغامرة أسطورية - أشد حماسا للزواج القائم على الحب المتبادل ، وأعرق ايماننا بأنه النعمة الكبرى التى تهبها السماء للموعددين السعداء

وتلطفت السيدة الام ، حتى أنبأت زوجها بهذه العاطفة الحلوة التى لمست قلب فتاته الأولى ، فرق قلب الاب النبيل للحبيين العزيزين ، وتمثلهما وهما يترشفان فى حياتهما الزوجية ، من ذاك التبع العذب المبارك الذى شاء له حظه أن ينهل منه أعواما دون أن يضجر أو يمل

هنالك أشارت «خديجة» على ابن أختها أن يتقدم الى محمد أبى زينب خاطبا ، وكان بودها لو تمهلت فترة لنستبقى ابنتها الكبرى الى جانبها ، لكنها رأت تهافت الفتية القرشيين على مصاهرة الهاشمى الامين ، وخشيت اذا هى تريثت أمدا ، أن يسبقوا «أبا العاص» الى طلب يد «زينب» فيكون ثمت شىء من الحرج لا ترضاه لزوجها العزيز



وقد أحسن «محمد» لقاء «أبى العاص» كما اعتاد دائما أن يفعل ، وأصغى بملء سمعه اليه وهو يعرب له عن رغبته فى الزواج من «زينب» ، ثم كان جوابه ، أنه نعم الصهر الكفء ، لكنه مع ذلك يرجو أن يمهله ريثما يعلن هذه الرغبة الى ابنته ، فانها لأهل لان تكون صاحبة الكلمة الاولى فى أمر جليل كهذا ، يعنيها أكثر مما يعنى أى فرد سواها وكان الأب الكريم يعرفا شعور ابنته نحو «أبى العاص»

ورأيها فيه ، لكنه ، على ما يعرف من هذا كله ، لم يشأ أن يقطع فى الامر دونها ، وأراد بعد كل هذا أن يعفيها من حرج المواجهة ، فعهد الى أمها أن تسبقه اليها بالنبا السعيد ، ثم قام يسعى حتى دنا من غرفتها فوقف قريبا منها بحيث تسمعه ولا تراه ، وقال بصوت ملؤه الحب والحنان :

- بنيتى زينب ، ان ابن خالتك أبا العاص بن الربيع ذكر اسمك

ولم ينتظر جوابها جهيرا معلنا ، فقد كان يعرف أن حيائها سوف يمسك لسانها عن الرد ، اللهم الا اذا كانت تأبى الزواج بالرجل فتتغلب على حيائها كيلا يتم الامر على ماتكره

وتلبث الاب برهة يصغى ، فلم يسمع سوى خفقات القلب الطاهر ، ودعوات الام الحنون ، واذ ذاك عاد الى حيث ترك أبا العاص ينتظر ، فصافحه مهنئا داعيا مباركا



وذاع النبا السعيد فى مكة ، فوجمت له قلوب شبانها الذين طمعوا فى الظفر بالعروس الهاشمية ، لكن أحدا منهم لم يجرؤ أن يذم الصهر المختار . أقصى ما قالوه يومئذ أن بنى العم كانوا أولى بزینب من ابن الحالة ، ثم أمسكوا فلم يقولوا عن أبى العاص الا خيرا ، وهل كانوا يستطيعون أن يقولوا الا خيرا ؟

قرشى صميم ، يلتقى نسبته من جهة الاب مع محمد بن عبد الله ، عند عبد مناف بن قصي ، فهو « أبو العاص بن الربيع ابن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي »

ويلتقى نسبه من جهة الام مع زينب بنت محمد ، عند
جدهما الادنى خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، فأمه
« هالة بنت خويلد » أخت خديجة الطاهرة ، زوج محمد وأم
زينب

وكان الى جانب ذلك الاصل العريق والعرق الطيب ،
كريم الخصال نبيل الشخصية ، حتى لقد لقبه قومه بالأمين ،
كما لقبوا محمد بن عبد الله
وأتاح له أمانته من ثقة الناس به واطمئنانهم اليه
ما جعله يشب الى الصنف الاول من صفوف التجار ، وهم يومئذ
سراة مكة وأثريائها

ولقائل أن يقول ان السيدة خديجة ساعدت أبا العاص
على تحقيق رغبته ، وأعانت على اختياره زوجا لزينب ، وآخر
أن يقول ان محمدا كان بحيث يؤثر الهاشميين ، لو لم يكن
أبو العاص ابن أخت خديجة ، وهى من هى فى حياة محمد
وفى قلبه وفى دنياه

ولكن اذا كانت السيدة خديجة قد مهدت السبيل أمام
ابن الربيع ، فقد كان له وراء هذا من مجده المكتسب
والموروث ، ما يزيه ويغنيه ، ويفتح له أى بيت شاء من
بيوتات مكة ، ويزف اليه أى عروس يختارها من زهرات
المجتمع القرشى العالى



تهياً البيت المحمدى للعرس ، وامتلاءً بذلك الضجيج
المحبوب الذى يقترن عادة باعداد بيت جديد ، وقد بعث
« محمد » فى طلب أزكى العطور والاطياب ، كما أرسلت

خديجة من يجوبون الاسواق القريبة ، ويترصدون من يغد
على مكة من التجار ، لياتوها بخير ما يحملون مما يصلح
للعرس ، على حين مضى أبو العاص يعد بيته لاستقبال
الوافدة الغالية ، ويسخر في هذا السبيل بما يتيح له
ثراؤه من مال



وآن موعد الزفاف ، فبدت « زينب » في جأوة العرس
رائعة البهاء ، ورددت أرجاء مكة أصدااء الحفل البهيج ،
ونحرت الذبائح ودعى اليها كل من أظلمت سماء البلد العتيق
وصحبت الاسرة المحمدية عروسها الى بيتها الجديد ،
ولبست هنالك وقتا تبارك الزوجين ، وتهون على الغالية
مشقة فراقها لبيتها الاول الذي حلت فيه تمائمها ، ثم
فركتها في رعاية زوجها الكريم

وهناك اظلت زينب وزوجها أبا العاص سعادة غامرة، واتاح
لهما الحب المتبادل أن ينعموا بالعيش في ظل الزوجية الموفقة، وان
مرت بهما بين الحين والحين فترات من وحشة الفراق المؤقت،
ذلك أن أبا العاص كان مضطرا الى السفر في تجارته، فيمضى
تاركا قلبه في مكة ، وتحاول « زينب » أن تتجلد للفراق،
وتستعين عليها بزيارة بيت أبيها، فرازا من وحدتها والتماسا
لبعض التسلية ، واسترواحا لذكريات طفولتها السعيدة ،
وهناك كانت تشهد ما يلوح في أفق الاسرة من طلائع ذلك
الغد المغيب ، وقد كثر انقطاع أبيها الى التعب والتأمل في
خلوته بغار حراء ، وبدت أمها ولا شغل لها الا أن ترمقه
على البعد ، وتهيء له ما في طاقتها من أسباب الراحة
والهدوء

وتنشاغل «زينب» بالمشاركة في تدبير شؤون الدار لكي
تتيح لامها الفراغ للتفكير في الحبيب واعداد زاده والسهر
على سلامته ، حتى يعود «أبو العاص» من سفره فترجع زينب
الى بيتها حيث تفضي الى زوجها بما يساورها من قلق ، فيبيت
في نفسها الطمأنينة ، ويردها الى مألوف حالتها من دعة
واشراق

ثم من الله عليهما بوليدة سماها جدها « أمامة » فكانت
لهما قرّة عين ...

وذات صباح ، سمعت « زينب » مبكرة الى بيت أبيها وأبو
العاص على سفر ، فالتقت لدى الباب بأُمها عائدة من زيارة
عجلى لابن عمها « ورقة بن نوفل »

ولم يسبق لزينب أن رأت أمها على مثل هذه الحال من
الانفعال والاهتمام والاستغال ، وقد راعها أن مرت بها فلم
تكذب تراها ، بل اندفعت لتلوى على شيء نحو مخدع زوجها ،
حيث تلبثت هناك فترة غير قصيرة ، قبل أن تخرج الى بناتها
وقد عاودها هدمؤها وبانت عليها راحة البال

وأصغت « زينب » الى أمها وهي تحدثها حديثاً عجيباً
عن نزول الوحي على أبيها صلى الله عليه وسلم اذ كان
يتعبد في حراء ، فأخذت بما سمعت حتى لم تحر جواباً ،
ذلك أن الامر كان من الخطر والجلال بحيث قصرت عن ادراكه
وأعيائها أن تبلغ مداه

ولبثت في مكانها ساكنة لا تریم ، وأفلت منها زمام أفكارها
فلم تدر من أين تبدأ ولا أين تنتهي ، بل خيل اليها أنها
تسبح نائمة في بحر لجى لا تدرك عبره !

حتى ردها الى يقظتها صوت أختها فاطمة تقول :
- أو مايسرك يا أختي أنك بنت نبي هذه الامة ؟
اجابت بعد تأمل صامت :

- أجل والله يا فاطمة ، وأية فتاة لايزدهيها هذا الشرف
الذي ما بعده شرف ؟ لكنه الذي سمعت وسمعت من قول
خالي «ورقة» : ليكذبن أبى ، وليؤذين ، وليخرجن وليقاتلن !
ففكرت « فاطمة » مليا وقد عز عليها أن يؤذى أبوها ،
ثم رفعت وجهها وقالت لأختها :
- هو والله ما قالت أمى لأبى :

« الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت ، والله
لا يخزيك الله أبدا ٠٠ انك لتصل الرحم وتصدق الحديث
وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق »
وابتسمت زينب ، وكذلك فعلت فاطمة ، وان أحست
كلتاها أن لهذا الامر ما بعده !



عاد « أبو العاص » من رحلته ، وملء سمعه شائعات
تناقلها الركبان ، عن ظهور « محمد بن عبد الله » بدين جديد
وأسرت اليه زوجته « زينب » بالنبأ اليقين ووجهها يفيض
بشرا وأملا وفخرا ، فمارعها الا أن أمسك صامتا لا يعقب
وسألته :

- ما بك يا ابن الحالة ؟
أجاب وهو يضمها الى صدره :
- بى يا حبيبة أنى خائف

ثم أرسلها من بين ذراعيه وهو يردد كمن يحدث نفسه:
- لو تبعته لقال القوم : فارق دين آبائه أرضاء
لزوجه وحميه ، ولو خالفته ...

فلم تدعه زينب يتم كلمته ، بل قاطعته فى لهفة وضراعة:

- لكنك لن تدع كلام القوم يثنيك عن الحق .

ورنت اليه طويلا قبل أن تقول :

- وأنا بعد قد أسلمت يا ابن الخالة

قال وقد أسقط فى يده :

- أو قد فعلتها يا زينب ؟

أجابت :

- ما كنت لأكذب أبى ، وانه والله لكما عرفت : الصادق

الامين

ثم أضافت :

- وكذلك أسلمت أمى وأخوتى ، وعلى ابن العم أبى طالب ، وأبو

بكر ، وأسلم من قومك ابن عمك عثمان بن عفان بن أبى العاص

ابن أمية بن عبد شمس ، وابن خالك الزبير بن العوام بن

خويلد

فلم يبده عليه أنه أصغى الى ما تقول ، بل استطرد متسائلا

وفى صوته رنة أسى وملام :

- فهل فكرت يا زينب حين تبعت دين أبيك ، فيما يحدث

لو بقيت أنا على دين آبائى ؟

فهزت رأسها وهى تجيب :

- كلا يا ابن الخالة ، بل رجوت أن تسبق الى الاسلام

كما سبق اليه من قومك عثمان والزبير

فانشى موليا . وخرج الى دار الندوة ، وبقيت هي تنتظر
على جمر

وآب اليها فى غسق الدجى واجما مطرقا ، فلم تحاول
أن تسأله عما به ، بل تركته حتى جلس وقال من تلقاء نفسه
بصوت حزين :

- لقيت أباك اليوم فى الكعبة يازيىب ، ودعانى الى
الاسلام

ثم لم يزد ..

وكان فى وجوم ملامحه ، وترنح صوته ، ما يغنى زيىب
عن سؤاله : بم أجاب الدعوة

ووقف فى أعماق الليل يطويهما الحزن والخوف والاسى ،
فلما أرهقتهما وطأة الموقف تدانيا حتى هما بعناق ، ثم ما لبثا
أن تراجعا فجأة ، وكأن حاجزا غير مرئى يقف بينهما فيحول
دون ما يبغيان من شعور بالتدانى ، والتماس كل منهما فى
صاحبه ملاذا وسكنا

ولم يناما ليلتهما ، ولا ما بعدها من ليال ، اللهم الا أن
يغلبهما الكلال فيغفوا مجهدين ، غفوات خاطفة ، حائرة
ممزقة

وقال لها ذات ليلة وقد راعه ماتكايد :

- والله ما أبوك عندى بمتهم ، وليس أحب الى من أن
أسلك معك يا حبيبة فى شعب واحد ، لكنى أكره لك أن
يقال ان زوجك خذل قومه وكفر بأبائه ارضاء لامراته ،
فهلا قدرت وعذرت ؟!

فتندت عيناها بالدموع ولم تجب ، وان خايلها الامل فى
أن تنجلى الغمة عن قريب ، كما منتها أمها خديجة

على أن الغمة لم تنجل سراجا ، بل طال عليها الأمد
وجاوزت المدى، وهذه قریش قد لجت فى عداوتها للرسول،
وأمعنت فيمن اتبعوه أذى واضطهادا حتى اثختهم بالجراح
وأخرجتهم من ديارهم وأموالهم . ثم لم يكفها كل ذلك
الذى فعلت بالمسلمين ، بل مدت يد الأذى الى بنى هاشم
وبنى عبد المطلب ، لأنهم أبوا أن يسلموا رجلهم الى أعدائه
المشركين ، فكانت المقاطعة الرهيبة التى خرجت بالهاشميين
الى شعب أبى طالب بظاهر مكة ، حيث أقاموا هنالك سنين
ثلاثا فى حصار منهك

ولم تكن « زينب » فيمن خرج الى الشعب ، لكن انباء
من فيه كانت تأتيا فى دار أبى العاص ، فتروعا بالذى
يكابده أهلها هناك

ولم تنجل محنة الحصار ، الا لتسلم الى ليل طويل ،
لا يبدو له آخر !



ماتت « خديجة »

ومات « أبو طالب »

فأحيا فقدهما ما مات من آمال المشركين فى النصر على
النبي ، وعادت معركة الاضطهاد التى فترت هونا عقب
الحصار ، الى اشد مما كانت عليه تأججا وسعيرا ...

وبدا اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، يهاجرون تباعا
فرارا بدينهم من الفتنة والاذى ، حتى لم يبق مع الرسول
بمكة الا من حبس أو فتن ، غير على بن أبى طالب ، وأبى بكر
الصديق رضى الله عنهما

وبلغت هذه المرحلة من المعركة ذروتها ، وسرى الهمس
فى مكة أن المشركين قد أئتمروا بمحمد ليقتلوه ويستريحوا
منه

وأصبحت « زينب » ذات يوم ، ومكة من أدناها الى
أقصاها ، تتحدث عن مطاردة قريش لمحمد الذى خرج من
« مكة » وليس معه سوى صاحبه أبى بكر الصديق
وأوجست فى قلبها خيفة « زينب » وهى تصفى الى أنباء
المطاردة العنيفة العنيدة ، حتى اذا بلغها وصول أبيها
صلى الله عليه وسلم الى مأمنه فى دار الهجرة ، اطمأن
عليه بالها

وجاء رسول من يشرب فصحب أختيها « فاطمة
وأم كلثوم » الى يشرب ، وكانت « رقية » قد هاجرت
كذلك من قبل ، وبقيت هى دونهن فى دار أبى العاص بمكة ،
اذ لم يكن النبى قد فرق بينهما بعد

وتلفتت حولها فاذا مكة قد خلت من كل الأهل ، واذا
دار أبيها مغلقة خلاء ، اللهم الا من أطياف الاحباب الذين
هجروها كارهين

وطالما وقفت زينب بالديار المقفرة للموحشة ، تسألها :
أين من كانوا بالامس يملئونها بهجة وانسا ؟
أين محمد وخديجة ؟ وأين رقية وأم كلثوم وفاطمة ؟
وأين القاسم والطيب ؟

رحلوا جميعا ، فأما خديجة وولداها فالى غير مآب ،
وأما محمد وبناته فالى هجرة واغتراب
والتمست قبر أمها فأكبت عليه تروى الثرى بدمعها ،
حتى اذا أراحها البكاء هونا أغرقت فى تأمل صامت حزين :
واعجبا .. الاحياء من أهلها وأحبابها جد نائين ، والموتى
منهم هم الجيران القريبون !
وذكرت سعادتها المدبرة ، فشعرت بقلبها يكاد يتمزق :
ان زوجها العزيز لا يزال على دين آبائه ، ولو كان قد أسلم
لما تمزق الشمل وانفردت هنا بمكة ، بعيدا عن أبيها
وأخواتها



وتتابعت النذر معلنة بدنو عاصفة عاتية ، فمحمد صلى
الله عليه وسلم قد وجد فى يثرب نصرا ومقاما ، وأصحابه
يتربصون بقريش ليقطعوا عليها طريقها الحيوى بين مكة
والشام ، وقد نجحت جماعة منهم فى الظفر بعير تحمّل
تجارة القريش ، فيها عمرو بن الحضرمي ، فعاد المسلمون
الى يثرب بالعير وبعض الاسرى ، وتركوا ابن الحضرمي
صريعا بسهم على اديم الصحراء

وظل اهل مكة بين مصدق ومكذب ومرتاب فى امر هذه
القلة المغتربة مع « محمد » بغير عدة ولا مال ، حتى روعوا
بعودة « ضمضم بن عمرو الغفاري » - وكان مسافرا فى
تجارة الشام مع أبى سفيان - فما بلغ مكة حتى وقف على
بعيره وحول رحله وشق قميصه وصاح مستنفرا :

- يا معشر قريش .. الاطيمة الاطيمة ! اموالكم مع
ابى سفيان قد عرض اها محمد فى اصحابه لا ارى لكم ان
تدركوها .. الغوث الغوث !

فجاءته الاصوات من كل جانب :

- ايظن محمد واصحابه ان تكون غير ابى سفيان كغير
ابن الحضرمى ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك !

وصك الصوت سميع « زينب » فادركت انها الحرب ..
الحرب بين قريش والمسلمين

وفى الاولين زوجها ووالد طفلتها امامة : ابو العاص بن
الربيع

وفى الآخرين ابوها : محمد رسول الله !
ويائت ليلتها وليس فيمن تظله سماء مكة اشقى منها
وافدح هما وقلقا

فلما اصبححت ، وقفت ترقب قريشا وهى تسير فى الفد
مقاتل كاملى العدة شاكى السلاح لتمنع غيرها

كم ترى يكون عدد الجيش مع ابيها فى يشرب ؟ مائة ؟
مائتان ؟ ثلاثمائة ؟ ياالزيب مما تتمخض عنه المعركةالرهيبة
غير المتكافئة

وانثنت الى مهد طفلتها « امامة » فرنت اليها بعين
دامعة وقلب متصدع ، ثم همست بصوت حزين ابح :

- لن تطلع علينا الشمس يا ابنتى فى مثل يومنا هذا ،
الا واحدا نا يتيمة !

ثم ارخت يديها ، وجمد الدمع فى مقلتيها ، واستسلمت
لقضاء الله وقدره

ولم تحاول أن تتبّع أنباء القتال الدائر أو تتلمس
ما يصل الى مكة من أخباره ، فأيا ما كانت النتيجة ، فليس
أمام « زينب بنت محمد » إلا اليتيم أو الترمّل !

واذ هي منطوية على نفسها تجتر مخاوفها ، جاءتها عمّة
أبيها « عاتكة بنت عبد المطلب » فابتدرتها قائلة :

— أو ما بلفك النبأ العجيب ؟

فنظرت إليها زينب بادية اليأس ، ولم تجب
واستطردت العمّة :

— انتصر محمد في قلة من صحابته ، على قريش في
كثرتها وعدتها

فانتفضت زينب هاتفة :

— انتصر أبي ؟ وافرحناه !

ثم تذكرت بقة زوجها أبا العاص ، فضمت طفلتها الى
صدرها واستعبرت باكية

لكن العمّة عجلت اليها بالبشرى : لم يقتل أبو العاص ،
بل وقع في أسر صهره الكريم

هنالك تعلقت « زينب » بعنق عمّتها ، تقبلها بدموع
الفرح ، ثم سكنت على صدرها مجهدة تستريح . . .



واتتها بقية الانباء بعد حين . . .

جاءت بها فلول الجيش المهزوم الذي ترك هامات

قریش ورعوسها مجندلة صرعى حول ماء بدر ...
وأذيعت أسماء الأسرى ، فبعث ذووهم فى الفداء
وكان أبو العاص ذا مال ، وقد اراد اهله ان يغلوا فى
فدائه ، لكن « زينب » آثرت أن تفتديه بما هو أعز من
المال !



سيق أسرى بدر الى يشرب فى أعقاب الفئة الظافرة ،
فتأملهم الرسول صلى الله عليه وسلم مليا ، ثم نحى عنهم
صهره « ابن الربيع » ، وفرق الباقين بين اصحابه وقال :
« استوصوا بالاسارى خيرا »

وبقى أبو العاص عند النبى ، حتى جاءت رسل قریش
فى فداء أسراها

وغالوا فى الفداء ، حتى ان المرأة لتسأل عن أغلى ما فدى
به قرشى ، فيقال لها : أربعة آلاف درهم . فتبعث بمثلها
فى فداء ابنها (السيرة ٣١٦/٢)

وتقدم « عمرو بن الربيع » أخو أبى العاص ، فقال
للنبى :

— بعثتنى « زينب بنت محمد » بهذا ، فى فداء زوجها :
أخى ، أبى العاص بن الربيع

وأخرج من ثيابه صرة قدمها الى الرسول ، فاذا فيها
« قلادة » لم يكده « محمد » يراها حتى رق لها رقة
شديدة ، وخفق قلبه للذكرى

لقد كانت قلادة « خديجة » أهدتها الى ابنتها زينب يوم
عرسها حين زفتها الى أبى العاص ، ابن أختها « هالة »

واطرق اصحاب الرسول خشعا وقد أخذوا بجلال
الموقف وروعته :

قلادة الحبيبة ، تبعثها ابنة النبي الى أبيها ، فى فداء
زوج حبيب !!

وتكلم الأب النبى بعد فترة صمت ، فقال فى حنان :
- ان رايتم ان تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها ،
فافعلوا

فهتفوا جميعا بملء قلوبهم :

- نعم يا رسول الله

وأدنى محمد - صلى الله عليه وسلم - اليه صهره
الذى غلبه التأثير لهيبة الموقف ، فأسر اليه حديثا لم يعلم
ما هو ، فحنى ابن هالة رأسه موافقا ، ثم حيا ومضى ،
فلما أبعد ، التفت الرسول الى أصحابه من حوله ، فأثنى
على أبى العاص خيرا وقال :
- والله ما ذممناه صهرا !



دخل « أبو العاص » بيته فما رآته زوجته « زينب »
حتى وثب قلبها اليه فرحة بنجاته ، ثم لم تسعفها قواها
على النهوض لفرط ما هزها الانفعال ، فرفعت وجهها
الجميل الى السماء تحمد الله أن رده اليها والى ابنته سالما ،
وتضرع اليه تعالى أن يشرح قلبه للاسلام

وشفلتها فرحة اللقاء ، فلم تلمح ما يغشى وجه الحبيب
من وجوم واكتئاب ، حتى قال وهو مغمض العينين كأنما
يشفق ان يرى وقع كلماته عليها :

- جئتكم مودعا يا زينب
 فصاحت كمن لسعتها نار :
 - هكذا ولما نكد نلتقى ! ؟
 قال وما زال يتحاشى النظر اليها :
 - لست راحلا يا زينب ، ولكنك الراحلة هذه المرة !
 وهالها ما تسمع :
 كانت تعرف أن قريشا أرادت أصهار الرسول على أن
 يردوا بناته اليه ليشغلوه بهن ، وقد استجاب لهم زوجها
 اختيها « رقية وأم كلثوم » فرداهما الى أبيهما ، أما أبو العاص
 فتركهم يقولون :
 - فارق صاحبك ونحن نزوجك اى امرأة من قريش
 ثم روعهم بجوابه :
 - لا والله انى لا افارق صاحبتى ، وما احب ان اى
 بامرأتى امرأة من قريش
 فهل تراهم عاودوه اليوم فى امر فراقها فاستجاب لهم
 بعد الذى كان فى « بدر » ؟
 وشعرت ببرودة تجمد اطرافها وتسرى الى قلبها ،
 بحيث لم تستطع ان تخطو الى فراشها ، فاستندت الى
 جدار مخدعها مرتعدة ، تنتظر فى استسلام يأس ، ماذا بعد
 وأدرك « أبو العاص » ما خطر ببالها ، فبادرها قائلا فى
 حنو وكأنما ذاب قلبه فى صوته :
 - رحماك يا حبيبة ، ان أباك هو الذى طلب ان اردك
 اليه ، لان الاسلام فرق بينى وبينك ، وقد وعدت محمدا ان
 ادعك تسيرين اليه ، وما كنت لأنكث عهدي
 وحملها صوته الى بعيد

وتمثلت نفسها في يشرب ، تقبل أباهما وتعانق اخواتهما ،
وتلقى النازحين من الأهل

وانتشت بالحلم الهنيء لحظة ، ثم آبت منه حين وقعت
عينها على «ابن العاص» غارقاً في شجته ، فسأله مترفقة ،
- كم بقي لنا من وقت نقضيه معا ؟
أجاب بصوت واهن :

- ليس بالكثير .. ان هي الا أيام تتجهزين فيها للسفر ،
ثم يكون الفراق المحتوم
وبقى سؤال لزيب :
- وترافقني الى يشرب ؟

فأمسك دموعاً تحيرت في مقلتيه واجاب :
- كلا يا ابنة الخالة ، بل يأتي اخوك زيد بن حارثة ورفيق
له من الانصار حتى يبلغا « بطن ياجج » - على بعد ثمانية
أميال من مكة - فينتظرا هناك حتى تمرى بهما فيصحباك
الى ابيك ويشرب

وخرجت « زيب » في الغداة تتجهز للسفر ، فلمحتها
« هند بنت عتبة » التي روعها مصابها في بدر ، وأخرجها
من بيت زوجها ابي سفيان الى محافل مكة وانديتها تدعو
للشار ممن قتلوا أباهما عتبة بن ربيعة ، وعمها شيبة ،
وأخاها الوليد بن عتبة ، وابن عمها عبيدة بن سعيّد بن
العاص بن أمية ، وابن زوجها حنظلة بن أبي سفيان بن حرب
ولم يخف على هند - في ذكائها اللماح - أن زيب انما
تتجهز لتلحق بابيها ، لكنها ارادت أن تستوثق من الامر ،
فدنت منها وقالت متلطفة :

— يا بنت محمد ، ألم يبلغنى أنك تريدن اللّحوق بأبيك ؟
فتحيرت « زينب » لا تدري بماذا تجيب . وازافت
هند مجاملة :

— اى ابنة عمى ، ان كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق
بك فى سفرك فان عندى حاجتك ، فلا تضطنى منى فانه
لا يدخل بين النساء ما بين الرجال

ولست الكلمات الرقيقة الناعمة قلب زينب الطيبة
الطاهرة ، المبرأة من الكيد والخبث ، فهمت بأن تفضى الى
هند برحيلها القريب ، لولا ان شعرت بما يشبه الخوف ،
فكتمت عن بنت عتبة خبر سفرها
ومضت كلتاهما لشأنها

أما زينب فقالت : « والله ما أراها قالت ذلك الا لتفعل ،
ولكنى خفتها فأنكرت ان أكون أريد اللّحوق بيشرب »
وأما هند ، فراحت تؤجج فى قريش نار الثار ، وتغذيها
بوقود من الحقد والبغضاء
وسرعان ما حل الموعد المضروب

وودعت « زينب » أبا العاص وداع محبة غير قالية ولا
هاجرة ، وخرجت وفى أحشائها بضعة منه : جنين لم
يستكمل شهره الرابع

وحاول « أبو العاص » ان يتجلد فقال :
— مهما يحدث يا زينب ، فسأبقى على حبك ما حييت ،
وسيبقى طيفك أبدا ملء هذه الدار التى شهدت أيامنا
الحلوة

ثم خانه تجلده ، فأرخی بصره وترك أخاه « كنانة بن الربيع » يمضى بها الى حيث ينتظر زيد وصاحبه وانطلق « كنانة » يقود بعيرها نهارا وقد أخذ قوسه وكنانته متأهبا ، فهال قريشا أن يخرج بها هكذا على مرأى منهم ومسمع ، وخرج رجال منهم فى أثر المهاجرة حتى أدركوها بذى طوى ، فكان أسبقهم اليها « هبار بن الأسود الأسدى » الذى روعها بالرمح وقد جن حزنه على اخوة له ثلاثة ، صرعوا جميعا فى بدر بأيدي أصحاب محمد

ونخس البعير ، فالتقى براكبته على صخرة هناك ، واذا ذاك برك « كنانة » دونها ونثر كنانته وهو يزأر :

— والله لا يدنو منى رجلا الا وضعت فيه سهما
فتراجع المطاردون الجبناء ووقف « أبو سفيان » بعيدا
يقول لكنانة :

— كف عنا نبلك حتى نكلمك
فكف كنانة

وتقدم أبو سفيان حتى دنا منه وقال :

— انك لم تصب يا ابن الربيع : خرجت بالمرأة على رءوس
الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا
من محمد ، فيظن الناس أن ذلك عن ذل أصابنا ، وإن ذلك
منا ضعف ووهن . ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من
حاجة ، ولكن ارجع بالمرأة حتى اذا هذأت الاصوات وتحدث
الناس أن قد رددناها ، فسلها سرا والحقها بأبيها
فكبر على « كنانة » أن يردها ليعود فيتسلل بها سرا بعد أن

يذيع في الناس أن قد ردها قريش ، لولا أن سمع توجعها
فالتفت إليها فاذا هي تنزف دما ، وقد طرحت جنيحتها
على أديم الصحراء !

وعاد بها إلى مكة ، حيث بقي « أبو العاص » إلى جانبها
أياماً يرعاها ولا يفارقها لحظة من ليل أو نهار فلما تماكنت
بعض قواها ، خرج بها « كنانة » حتى أسلمها إلى « زيد
ابن حارثة » وما تزال تنزف دما

ولم يتبعها في هذه المرة طالب ، بل أغمض الذين طاردوها
بالأمس أعينهم ، وقد ركبهم الخزي والعار من قول « هند
بنت عتبة » تعيرهم وتسخر بهم :
— امعركة مع أنثى عزلاء ؟ فهلا كانت هذه الشجاعة في
بدر ؟

في السلم أعياراً ، جفاء وغلظة
وفي الحرب أشباه النساء العوارك ؟
ورجع « كنانة » إلى أخيه بعد أن أطمأن عليها وهو
يردد بملء صوته :

عجبت لهبـسـار وأوباش قومه
يريدون أخفاري بنت محمد !
ولست أبالي ، ما حييت ، عديدهم
وما استجمعت قبضا يدي بالمهند !



استقبلت « يثرب » بنت الرسول باحتفال مهيب ،
شابت فرحة اللقاء فيه ، سورة الغضب لما أصاب العقيلة

الكريهة أول خروجها من مكة ، وحملت الركبان الى قريش
قول شاعر الانصار منذرا متوعدا :

اتانى الذى لا يقدر الناس قدره

الزئيب فيهم من عقوق ومائم

فأقسمت لا تنفك منا كتائب

سراة خميس فى لهام مسوم

نزوع قريش الكفر حتى نعلها

بخاطمة فوق الأنوف بميسم

نزلهم اكناف نجد ونخله

وان يتهموا بالخييل والرجل نتهم

يد الدهر حتى لا يعسوج سربنا

ونلحقهم آثار عاد وجرهم

فأبلغ « ابا سفيان » اما لقينته

لئن أنت لم تخلص سجدودا وتسلم

فأبشر بخزى فى الحياة معجلى

وسربال قار خالدا فى جهنم !

(السيرة ٢ / ٣١٠)

كذلك تحدثت الركبان بغضب الأب الرسول لابنته ،

حتى لقد أمر أصحابه أن يحرقوا الرجلين الأثيمين - هبارا

وزميله - بالنار اذا هم ظفروا بهما ، لكنه صلى الله عليه

وسلم لم يكد يخلو الى نفسه ويتدبر ما كان من أمره

بأحراق الرجلين ، حتى رأى أنه جاوز فيهما ما يجب لمثله

من حدود العقاب ، فلما تنفس الصبح بعث الى أصحابه

مسترجعا ما سبق من أمره ، ومستبدلا بالأحراق عقوبة

القتل

حدث أبو هريرة قال :

« بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية أنا فيها ، فقال لنا : ان ظفرتم بهبار بن الاسود أو الرجل الآخر الذى سبق معه الى زينب - سماه ابن اسحاق فقال : هو نافع بن قيس - فحرقوهما بالنار

» فلما كان الغد بعث الينا فقال: انى كنت امرتكم بتحريق هذين الرجلين ان اخذتموهما ، ثم رأيت انه لا ينبغي لأحد أن يعذب بالنار الا الله ، فان ظفرتم بهما فاقتلوهما »



ومضت سنوات ست ، حافلة بجليل الاحداث ، و « زينب » فى حمى أبيها بالمدينة تعيش على أمل لم يغلبها عليه اليأس قط ، وهو ان يشرح الله صدر « أبى العاص » للإسلام

وليس بمستغرب ألا نسمع عنهما خبرا فى هاتيك السنين ، وألا نلمح للسيدة زينب أثرا فيما كان بين نساء أبيها صلى الله عليه وسلم من مظاهر الغيرة والتنافس ، والا نعرف لأبى العاص بعد موقعة بدر ، مشاركة فى تلك الحرب الطاحنة التى لم تهدأ لحظة ، بين المسلمين فى شرب والمشركين فى مكة

حتى كانت ليلة من ليالى جمادى الاولى من السنة السادسة للهجرة ، وقد باتت « زينب » مؤرقة تسامر ذكريات المت بها فذادت النوم عن عينيها . وطاب لها ان تحلم فى يقظتها بالغد الذى طال انتظارها اياه ، فالمسلمون يزدادون كل يوم قوة وعددا ، وقد دخل فى دين محمد

ألوف وألوف ممن كانوا أشد الناس عداوة له وحربا عليه ،
وبدا أن النصر الأكبر آت دون ريب ، فهل يسلم
« أبو العاص » ؟

ودنا الفجر وما تزال في يقظتها الحاملة ، فلم تكد تشعر
ببابها وهو يفتح في تردد وحذر ، ثم يبدو منه فجأة
« أبو العاص بن الربيع » وقد شحب وجهه وبان عليه
القلق

وارتابت « زينب » في يقظتها وظنت أن ما ترى ليس إلا
طيف من تحب ، يسرى إليها في هدأة الليل ، ليذكرها بما
لم تنس من ماضٍ لهما سعيد ، ولى وراج
وعجبت للطيف يبدو هكذا شاخصا كما لم يبدو لها من
قبل على كثرة ما ألم بها ، وغمغمت في شجو ورقة :
- أبو العاص !

فراعها أن يجيب بصوته المألوف :

- أجل يا أعز من لى ... أبو العاص ، ألفت به المقادير
قريبا من يشرب ، فسعى إليك والمطاردون في أثره
ولم تصدق « زينب » أذنيها ، بل ظلت ترمقه بنظرة
حاملة وهى ما تزال أشبه بمنوامة ، واستمرت أن تبقى
هكذا ، سعيدة بلقيا الطيف على غير موعد ، الى أن لمحت
نور الفجر الوليد يتسلل من كوى الدار ، وسمعت بلال
ابن رباح يؤذن للصلاة بصوته الرخيم ، فتجيبه أصوات
المؤمنين الذين هبوا من مضاجعهم عندما سمعوا دعاء
السماء :

« الله أكبر »

وميزت خطوات قريبة ساعية الى المسجد فعرفت أنه
أبوها يخرج ليصلى بالناس
وقالت كمن تحدث نفسها :
« رباه ، لكأنى فى يقظة ، ولكأنى بك يا أبا إمامة الى
جانبى ! »

فرد عليها صوت من حسبته طيفا :
- أجل يا زينب ، وهذا ضيفك ينتظر أن تحييه بعد
أن أجهده السرى ، وأرهقته المطاردة ، وأضناه الفراق !
فسرت رعدة فى جسدها ، وقامت اليه مسبلة الجفنين
فى فتور حالم ، حتى اذا لم يبق بينهما وبينه الا خطوة
واحدة ، وقفت فجأة كمن تذكرت شيئا فاتها ، ورنّت اليه
بنظرة متسائلة دون أن يقوى لسانها على كلام
وهز ابن الربيع رأسه أسفا وهو يجيب عن سؤالها
الصامت :

- كلا يا زينب ، لم آت يشرب مسلما ، وإنما خرجت
تاجرا الى الشام فى أموال لى وأخرى لرجال من قریش ،
فلما فرغت من تجارتى وأقبلت قافلا ، لقيتنى سرية لأبيك
فيها زيد بن حارثة ومعه مائة وسبعون رجلا ، فأصابوا كل
ما معى وأعجزتهم هاربا ، حتى اذا جن الظلام جئتكم متخفيا
مستجيرا !

(الاصابة ٩١/٨)

فعادت الى مكانها الاول ، وهى تقول بصوت يقطر أسى
وياسا :

- مرحبا بابن الخالة ، مرحبا الف مرحب بابى إمامة
ولفهما صمت مشحون بالشجن ، وغرق الكون من

حولهما في سكون خاشع ، وبدا كأن الدنيا قد أمسكت
انفاسها لحظة ، ثم تناهى الى سمعها صوت النبي يكبر في
المسجد ، فجمعت زينب نفسها وقامت الى الباب ، ثم
صاحت بملء صوتها :

« أيها الناس ، انى أجرت أبا العاص بن الربيع »
وحمل نسيم الفجر صوتها الى من في المسجد فلما سلم
الرسول صلى الله عليه وسلم أقبل على من معه فقال :
« أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعت ؟ »
أجابوا :

« نعم يا رسول الله »
قال :

« أما والذي نفس محمد بيده ، ما علمت بشيء من ذلك
حتى سمعت ما سمعتم »
وأضاف بعد صمت قصير :

« انه يجير على المسلمين أدناهم ، وقد أجرنا من أجارت »
ثم انصرف عليه الصلاة والسلام فدخل على ابنته وعندها
ابن خالتها ، فما كادت تراه حتى هتفت ضارعة :
— يا رسول الله ، ان أبا العاص ان قرب فابن عم ، وان
بعد فأبو ولد ، وانى قد أجرته

فرنا اليهما الاب الكريم في عطف وتأثر ، ثم قال يحدث ابنته :
— اى بنية ، أكرمى مثواه ، ولا يخلصن اليك ، فانك
لاتحلين له

وتركهما وما يدريان علام استقر رايه فيهما ، فأتبعاه
بصريهما حتى اذا بعد ، التفت كل منهما الى صاحبه ، وقالت
زينب لائمة :

— هان عليك فراقنا ياأبا العاص
فأجابها وهو يمسك قلبه :
— معاذ الحب يازينب ، أما والله ما طاب لى من بعدك
عيش
فسأله :
— فقيم اذن هذا العذاب ؟ وحتام ؟
أجاب :
— حتى يقضى الله فينا أمره
واخفى وجهه بين راحتيه ، كيلا تلمح زينب دمة ترنحت
في مقلتيه

همست في ضعف :
— يرحمنا الله ياأبا العاص
فرفع وجهه اليها وقال متمهلا :
— لقد عرضوا على بالامس أن أسلم وأخذ مامعى من
أموال فانها أموال المشركين ، فأبيت قائلا : بئس ما أبدا به
اسلامى ، أن اخون أمانتى
فحدقت زينب فيه لعلها تستبين ما وراء كلامه ، لكنه
تحاشى نظرتها وراح يتشاغل بمناجاة طفلة النائمة في
سلام



وفي الصبح ، بعث الرسول من يصحب « أبا العاص » الى
المسجد ، حيث كان صلى الله عليه وسلم يجلس في جمع
من صحابته ، بينهم رجال السرية الذين أصابوا مال
أبى العاص
وقال لهم الرسول :

— ان هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له
مالا ، فان تحسنوا وتردوا عليه الذى له فانا نحب ذلك ،
وان أبيتم فهو فى الله الذى افاء عليكم فانتم احق به
فأجابوا بصوت واحد :

— يا رسول الله ، بل نرده عليه
وأسرعوا يفعلون ، حتى ان أحدهم لياتى بالدلو ، وبالاناء
الصغير ، وبالسقاء البالى ، الى أن ردوا عليه ماله بأسره ،
لم يفقد منه شيئا

وحان موعد رحيله ، فقال الرسول وهو يودعه :
— حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فوفى له
والتفت أبو العاص الى دار زينب مودعا من بعيد ، ثم
مضى وقد اعتزم أمرا !



مضى حتى بلغ مكة ، وفرحت قريش اذ رآته يعود
بتجارتها رابحة ، وبأموالها مثمرة لم تمس ، وأقبلت عليه
تستعجله الحديث عما كان من أمره مع الاعداء فى يشرب ،
لكنه استمهل القوم حتى أدى الى كل ذى مال منهم ماله ،
ثم وقف بحيث يسمع وصاح بأعلى صوته :

— يامعشر قريش ، هلبقى لاحد منكم عندى مال لم
ياخذه ؟
أجابوا :

— لا ، فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيا كريما !
فأدار فيهم بصره ، ثم قال على مهل وكأنه يزن كل كلمة
مما يقول :

— فأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

والله مامننى من الاسلام الا تخوف أن تظنوا أنى انما أردت
أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله اليكم وفرغت منها ، أسلمت»
- السيرة ٣١٣/٢

وخلف القوم واجمين كأنما انقضت عليهم صاعقة ، وانطلق
مستقبلا يشرب



هل هلال المحرم من سنة سبع ، وقد عاد الرسول
وصحبه من الحديبية - على بعد مرحلة من مكة - بعد أن
عقدوا الصلح التاريخى الذى بدا كأنه المحاولة الاخيرة
لمشركى مكة ، قبل المعركة الحاسمة الفاصلة

وتناقل الناس هنا وهناك ، حديث الرسول يوم حالت
قريش بينه وبين ما أراد من دخول مكة ليحج الى البيت
العتيق مسالما لا يريد قتالا :

« ياويح قريش ! لقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو
خلوا بينى وبين سائر العرب ، فان هم أصابونى كان ذلك
الذى أرادوا ، وان أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام
وافرين ، وأن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟
فوالله لا ازال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله
أو تنفرد هذه السالفة ! » وأشار الى صفحة عنقه

وصدق رسول الله : ياويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب
وما يزالون على عنادهم وكفرهم ، وانهم لعلى يقين انها معركة
خاسرة ، لكنهم مع يقينهم ذاك ، يأبون إلا أن يلقوا بفلذات
أكبادهم وقودا لنار الحرب

وفى قريش أهل وعشيرة ، وفى مكة المسلمين المهاجرين

وطن ورحم وقريب ، وان يثرب لتفتح قلبها قبل ذراعيها
لكل من يفد اليها من هؤلاء مسلما ، وتوطيء له في رحابها
منزلا وسكنا

وهاهى ذى تستقبل مع هلال المحرم « ابا العاص بن
الربيع » وقد اتى من تلقاء نفسه مسلما ، فتنفأل بمقدمه
الذى اقترن بموعد الذكرى السابعة لهجرة نبي الاسلام
وقد توجه « ابو العاص » فور مقدمه ، الى مسجد
الرسول ، مارا في طريقه ببيت زينب ، فهلل المسلمون
وكبروا حين رأوه يبائع النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم
حفوا به مهنئين ، لكنه كان مشغول البال عنهم بأمر اهمه :
اترى الرسول يزد اليه « زينب » بعد الذى كان ؟
وساوره القلق ، ثم ذكر ان الاسلام يجب ما قبله ، فجمع
شجاعته وتقدم الى الرسول بحاجته فى استرجاع زينب
وائنى الرسول عليه خيرا ، ثم قام عليه الصلاة والسلام ،
وسار الى بيته ومعه ابن الربيع
ودعا اليه ابنته ، فردها على ابي العاص ، واجتمع الشمل
الممزق ، وتلاقى الزوجان الحبيبان بعد فراق طال مداه
حتى استنفد الصبر وغلب التجمل وافنى الاحتمال



ومضى عام واحد ..

عام واحد فحسب ، ثم كان الفراق الذى لاقاه بعده فى
هذه الدنيا

ماتت « زينب » فى مستهل السنة الثامنة من الهجرة ،
متأثرة بعلتها التى ازمتها منذ طرحت جنيها على اديم
الصحراء وهى خارجة من مكة

وربع « أبو العاص » للمصاب الفادح ، فأكب على الحبيبة
يناجيها ويتشبث بها حتى أبكى من حوله ، ولم يجروا
أحد منهم على إبعاده عن فراش الراقدة ، حتى جاء أبوها
محزوناً فاستودعها الله ، ثم قال للنساء :
— اغسلنها وترا : ثلاثاً أو خمساً ، واجعلن في الآخرة
كافوراً

هنالك غادر « أبو العاص » مخدع الغالية بخطوات مترنحة ،
ووقف بالباب ملتاعاً شارد النظرات ، إلى أن جهزوها للرحلة
التي لا يثوب منها مسافر
وصلى عليها أبوها الرسول في مسجده ، ثم شيعها إلى
مرقدتها حيث أودعوها ثرى يثرب وهالوا عليها الرمال
ورجع « أبو العاص » إلى داره التي كانت بالامسجنة الحب ،
فأمست بعد رحيل « زينب » منزل الذكريات والاشجان
وكاد الحزن يهلكه ، لولا أن وجد في ابنته « أمامة »
صورة حية من الراحلة ، تؤنس وحشته ، وتأسو جراحه ،
وتمحو بعض ما ران على البيت من وجوم واكتئاب
وكذلك وجد الرسول في « أمامة » ما يخفف حزنه على
« زينب » ، فكان يأنس بها ويهش لها ، وقد يحملها على
عائقه ويصلى بها ، فإذا سجد وضعها حتى يقضى صلاته ثم
يعود فيحملها

وحدثت السيدة عائشة أن الرسول صلى الله عليه وسلم
أهديت إليه هدية فيها قلادة من جزع ، فقال : لادفعنها
إلى أحب أهلى إلى . فقالت النساء : ذهبت بها ابنة أبى
قحافة ! لكن رسول الله دعا أمامة بنت زينب ، فأعلقها
في عنقها

ولم يكن جزع فاطمة على موت زينب بالذى يوصف ،
فلقد راحت تبكى فيها أمها وشقيقتها وصديقتها وصاحبتهما ،
وتذكر أيامهما السعيدة فى مكة اذ البال خلى وشمل الاسرة
ملتئم ، ثم كان لها بعض عزاء فى تسمية وليدتها باسم
« زينب » احياء لذكرى الفقيدة الغالية ، وترديدا لاسمها
الحبيب الذى لايمل

ولم يتزوج أبو العاص بن الربيع - فيما قرانا - حتى
لحق بزینب ، أيام أبى بكر ، فى ذى الحجة من السنة الثانية
عشرة للهجرة

وأوصى بابنته أمانة الى « الزبير » ابن خاله العوام بن
خويلد بن أسد . وقد زوجها الزبير من على بن أبى طالب
بعد وفاة خالتها الزهراء ، وظلت معه حتى قتل ، فكان
مشهدا وهى تطيف به اذ هو مسجى على فراشه ، يمزق
القلوب ويفتت الأكباد

قالت « أم الهيثم النخعية » :

أشباب ذؤابتى واذل ركبى
« أمانة » حين فارقت القرينا
تطيف به لحاجتها اليه
فلما استيأست رفعت رهينا



وكان الامام الشهيد قد قال لأمانة حين حضرته الوفاة :
« انى لا آمن أن يخطبك هذا الطاغية - يعنى معاوية - بعد
موتى ، فان كان لك فى الرجال حاجة فقد رضيت لك المغيرة
ابن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب عشيرا »

فلما انقضت عدتها ، كتب معاوية الى مروان بن الحكم
يامره ان يخطبها عليه ، وبذل لها مائة الف دينار . فلما
ذكرت ذلك للمغيرة المطلبى الهاشمى ، قال مغضبا :

— اتزوجين ابن آكلة الاكباد ؟ فلو جعلت امرك الى ؟
أجابت وقد ذكرت وصية زوجها الامام الراحل :

— نعم

فقال المغيرة :

— قد تزوجتك

واقامت معه حتى ماتت ، عن غير خلف ، وان قيل فى
رواية انها ولدت لعلى ابنه يحيى

وبموتها انقطع عقب « زينب الكبرى » وبقيت قصتها
المثيرة ملء سمع الزمان



رقية

زات الاجرتين

الخطيبتان - ظلال على الأفق - في
بيت أبي لهب - مع حمالة الخطب
- النجاة - زواج جديد - الهجرة
الاولى - الهجرة الثانية - ماتم
في يوم النصر ! - الثرى الطهور !

لم يكن قد مضى على زواج « زينب » من أبى العاص بن الربيع غير وقت قصير ، حين استقبل البيت المحمدى وفدا من آل عبد المطلب ، جاءوا يلتمسون مصاهرة ابن عمهم الأمين ، وقد خافوا أن يسبقهم اليه كفاء كريم من شباب قریش

وكانت الشقيقتان رقية وأم كلثوم ، على مألوف عادتهما من الملازمة ، حين وفد القوم ، فقالت أم كلثوم وقد عرفت بفطنتها فيم جاءوا :

— ما أرى دورك إلا قد حان يارقية

وقبل أن تهم رقية بجواب ، أقبلت « فاطمة » تقول ردا على ما سمعت من كلام أختها :

— بل جاء دوركما معا !..

ذلك أنها كانت تنعم بملاعبة أبيها حين جاء الضيوف ، فلم تشأ أن تفارقه ، بل انتظرت وفي حسابها أنهم قد ينصرفون على عجل ، فتستأنف ما كانت تحظى به من صحبة أبيها

وأتيح لها بذلك أن تسمع قول شيخهم أبى طالب :

— انك يا ابن العم قد زوجت زينب لابی العاص بن الربيع،
وانه لنعم الصهر ، غير أن بنى عمك يرون لهم عليك مثل
ما لابن أخت خديجة ، وليسوا دونه شرفا ونسبا
أجاب محمد :

— صدقت يا عم
واستطرد الشيخ يقول :
— وقد جئناك نخطب ابنتينا رقية وأم كلثوم ، وما أراك
تضمن بهما على ابني عمك
قال محمد :

— معاذ القرابة والرحم ، ولكن هلا أمهلتني يا عم حتى
أتحدث في هذا إلى ابنتي ؟

ولم تنتظر « فاطمة » لتسمع أكثر من هذا ، بل أسرع
تعدو إلى أختيها في بهو الدار وأسرت إليهما بالنبا الخطير
ووجعت الاختان لما سمعتا ، فقد كان الأمر كله مفاجأة
غير متوقعة ، ومن ثم تعطلت مشاعرهما واستغرقتهما جمود
صامت ، ثم راحت كل منهما تنظر إلى الأخرى ، وكأنهما
تستنجد بها أو تحاول أن تستبين موقفها ، لكن بصريهما
ارتدا إليهما بغير جواب

هنالك التفتتا معا إلى « فاطمة » وقالتا بصوت واحد :

— فهل عرفت لاي أبناء العم يسعى جدنا الشيخ ؟
أجابت الصغيرة :

— كلا ، فما أطق صبرا بعد ان سمعت حديث الجد ،
وبادرت اليكم بالنبا دون انتظار لما وراءه
وأطرقت لحظة مفكرة ثم قالت بصوت خفيض ، وكأنها
تحدث نفسها :

— وماذا يعني من اسم الخاطبين ؟ فليكونا من يكونان ،
فلن يتغير الموقف في كثير أو قليل ، وعمما قريب يتكرر المشهد
القاسي ، وتنتزع رقية وأم كلثوم من بيتنا كما انتزعت أخت

لهما من قبل ، وتنقلان الى دار أخرى غير هذه الدار ، وأبقى
هنا وحدي ، بغير أخت !

واغرورقت عيناها بالدموع ، حين أقبلت أمها تلتمس
اختيها ، ولم يفت الام في اشتغالها بالامر المهم ، ان صغيرتها
فاطمة تبكي ، فانعطفت اليها تسألها في حنان :
- ما يبكيك يا صغيرتي ؟

أجابت وهي تتشبث بها معانقة :

- لاتدعى أحدا ينتزعني منك ومن أبي ، فلست اطيع
فراقكما

فتبسمت « خديجة » ضاحكة من قولها ، وأجابتها :

- كلا ، لن تتركينا ياحلوة ، حتى تريدي أنت !

فصاحت « فاطمة » بملء سداجتها :

- لكنني لن أريد !

وعقبت الام هامسة في رقة وشجو :

- كذلك تقولين الآن يا صغيرتي ، وكذلك كنا نقول من

قبل

وأسبلت جفניה حالمة ، وارتدت بها الذكرى الى أربعة
عشر عاما مضت ، فرأت نفسها تعيش خلية البال قد نفضت
يديها من الرجال وصممت على الا تتزوج ، حتى لقيت
محمدا فلم تنتظر حتى يتقدم اليها خاطبا ، بل كانت هي
التي سعت اليه ، غير مكترثة بما قد يقول الناس ، ولا ملقية
بالا الى ما يحتمل ان يلقاها به المجتمع القرشي ، حين يبلغه
نبا سعيها للزواج من شاب فقير ، وهي التي ردت خاطبيها
من سراة قریش وكبار رجالها . وهذه هي تقف بعد أربعة
عشر عاما من زواجها بمحمد ، لتبارك اليوم السعيد الذي

لقيته فيه ، وتستعيد ذكره الحلو ، فتشعر بدفع الحب
يدود عنها برودة الشتاء وهى تدنو حثيثا من عامها الخامس
والخمسين !

وآبت من حلمها الهنيء الذى مازال فى نشوة منه ،
فاذا صغيرتها « فاطمة » تبادرها سائلة :

— من يكون الخاطبان يام ؟

اجابت فى ايجاز وهى ترنو الى رقية وام كلثوم ، وقد
وقفتا غير بعيد تصفيان :

— عتبة وعتيبة ، ابنا العم ابي لهب !

وأطالت النظر الى ابنتيها لتلمح وقع الجواب عليهما ،
لكنهما انسحبتا الى غرفتهما فى سكون ، دون ان تنبسا
ببنت شفة

وتبعتهما فاطمة

وبقيت الام وحدها وقد شعرت بانقباض لا تدرى سببه
فعلته بقرب فراقها لابنتيها ، على انها ما لبثت بعد فترة
تأمل ، ان عرفت فيم انقباضها . لقد كانت لا تستريح الى
« ام جميل بنت حرب » زوجة ابي لهب وام ولديه ، فغيها
شئ من قسوة القلب وشراسة الطباع وحدة اللسان . .
وفيهما كذلك صلف احمق وطيش اهوج ينايان بها عما يجب
لمثلها من اتزان ووقار ، ويفقدانها ذلك السميت الجليل الذى
يغلب على السيدات القرشيات ، وقد اشفقت « السيدة
خديجة » على ابنتيها من معاشرة هذه المرأة ، فما لهما بها
قبل وما تزالان صغيرتين غريبتين ، ولو ان الامر بيديها
لحالت دون اتمام هذا الزواج المقترح ، لكنها تخشى ان هى

فعلت ، ان تثير نائرة الهاشميين عليها ، وتعرض لاتهمهم
اياها بأنها تحاول ان تمزق ما بين محمد وآله من اواصر
القربى

والسيدة خديجة الى جانب هذا ، تعرف لام جميل
انتماءها الى بيت قرشى كبير ، ولن تسكت على مهانة الرفض
بل ستسعى جهدها لتؤلب قومها على خديجة ، وانها
لقادرة على ان تفعل ، وحسبها ان تتناولها بلسانها السليط
وتنطلق في المجتمع القرشى متحدثة بما شاءت وشاء لها
حقدها من مفتريات

وكانت السيدة خديجة بحيث تفضى الى زوجها بمخاوفها،
فما اعتادت قط ان تخفى عنه شيئا مما يهيجس به خاطرها
او يجول في سريرتها ، لكنها كرهت ان تشغل محمدا بهذه
الهواجس ، وهى تراه مشغول البال دائم التفكير منصرفا
عن شواغل الدنيا ، وانها لتدرك بفطنتها وقوة حبها لمحمد ،
ان ثمت امرا خطيرا يشغله ، وان لم تدرك كنه هذا الامر ،
ولا هى بحيث تحمله على الافضاء به اليها قبل ان يفعل
ذلك هو من تلقاء نفسه ، وانما حسبها ان توفر له ما يحتاج
اليه من هدوء وسلام ، وان تحوم حوله من غير ان تثقل عليه،
وترمقه في وحدته بعين ساهرة ، دون ان تقتحم عليه هذه
الوحدة

وما كان لها وهى الحريصة على طمأنينته ان تعكر هدوءه
بمخاوفها من ام جميل بنت حرب ، او تشغله بالصراع بين
حرصه على هناءة ابنتيه ، وبين بره بقومه واحترامه لاعمامه
واعتزازه بعشيرته الهاشميين ، او تعرضه - وهو في حالته
تلك - لعداوة ابي الهب وبغضاء امراته

وفي الغرفة القريبة ، كانت الفتاتان مطرقتين ساهمتين ، واختهما الصغرى ترقبهما في حيرة : ان الامر اليوم ليختلف عما شاهدت من « زينب » فلقد كانت بادية البشر والاشراق تستعد للفرح في غبطة وعلى استحياء ، اما رقية وام كلثوم فتبدوان اقرب الى الاكتئاب والقلق . ولم تستطع طفولة فاطمة ان تميز بين زواج قام على المودة والتعارف والالفة ، وآخر تعقده مصالح الاسرة وروابط الدم لا غير

والم تبادل الاختان حديثا عن حياتهما المقبلة ، لكن افكارهما كانت تدور بلا ريب في مدار واحد : ما بال الاسرة تتعجل زواجهما ، هلا اتاحت لهما وقتا تألفان فيه فكرة الانتقال الى دار ابي لهب ؟

وفي الحق انهما ما انكرتا من امر عتبة وعتيبة شيئا واضحا محددا ، فهما بعد من فتية آل هاشم الامجاد ، ولهما كذلك في بنى عبد شمس عز الخولة وصراحة النسب القرشي الكريم ، اما العم ابو لهب ، فله - الى جانب حسبه وثرائه - مكرمة سابقة هيات ان يجحدها آل محمد ، فانه ما كاد يسمع بشرى مولد محمد ابن اخيه عبد الله ، حتى اعتق جاريته ثويبة التي حملت اليه البشري السعيدة

وما غاب شيء من هذا عن بال رقية وام كلثوم ، لكنهما رغم ذلك تجفلان من فكرة الانتقال الى بيت العم ، ا يكون هذا لانهما لم تألفا بعد الوضع الجديد ، ولم يتح لهما وقت لتأخذا نفسيهما بالرضى عنه ؟ ام لعلهما تكرهان ان تستبدلا بالعيش مع أمهما السيدة المهذبة اللطيفة الوقور ، عشرة « ام جميل » ذات السمات السوقى والطبع الجامع الحاد ؟ او من يدري ، لعلهما احستا بهدى الفطرة ، فطرة حواء التى

قلما تخطيء في مثل هذا ، ان لام جميل على ولديها من
السلطان ما يجرح عزة رجولتهما ، ان لم يبلغ شخصيتهما
الغاء

وقالت ام كلثوم لرقية :

— انك لتعلمين ان ابانا لن يقضى هذا الامر دوننا ، فماذا
ترينك فاعلة ؟

فشحب وجه رقية وهى تجيب :

— لست بالتي تعق اباهما ، فتعرضه للخرج امام اهله
وعشيرته الادنين

ثم رنت الى اختها وقالت تشجعها في رقة وعطف :

— لا عليك يا اختاه ، فسنكون معا



وكذلك تم الامر في هدوء مشوب بالقلق ، وبارك محمد
ابنتيه ثم تركهما في حراسة الله ورعايته ، وانصرف الى
ما كان يشغله من تعبد وتأمل

وكذلك شغلت السيدة خديجة عن ابنتيها بالتفكير في
زوجها الحبيب ، وقد ازداد ميلا الى الوحدة واغراقا في
التأمل ونزوعا الى الصمت ، وبدا كأنه نفض يديه من شواغل
الدنيا وانطوى على نفسه يعالج وحده ذلك الهم الجليل
الذي يكتمه حتى عن خديجة ، موضع حبه وثقته وسكنه
ليتة يدعها تشاركه الهم وتحمل معه العبء الذي تحسه
ثقيلا باهظا ! ليتة يرحمها مما تعانيه من قلق ووحشة ،
فيفضي اليها بالذي يشغل باله

وفجأة ، لاح لها في هدأة الليل قيس من نور اضاء الظلمة

التي اغرقت الكون من حولها ، وتناهى الى مسمعها في ذلك
الصمت العميق ، صدى من قول « ورقة » ابن عمها نوفل :
لججت وكنت في الذكرى لجوجا

لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف

فقد طال انتظاري يا خديجا
ببطن المسكتين على رجائي

حديثك ان ارى منه خروجا !

ثم صمت الصدى ، وعاد السكون يلف الكون الهاجع ،
فأغمضت خديجة عينيها ، واستسلمت للرقاد بعد ان الح
عليها السهاد

ومضت ايام وليال ، كثر فيها خروج محمد الى غار حراء
وقلب خديجة يصحبه مطيفا به محوما عليه ، وان بقيت
بجسمها في البيت ، تعد له زاده ، وتبعث وراءه من يحرسه
ويأتيها بأنبائه ، وترصد مطلع النور المرتقب

وقد تذكر ابنتها رقية وام كلثوم ، فيرق قلبها رحمة
لهما واشفاقا عليهما مما قد تلقيان في عشرة « أم جميل »
لكنها لا تلبث ان تنسى همها ذاك فيما يملأ دنياها من طلائع
الامر الجليل المرتقب



ولم يكذب السيدة خديجة ظنها
فما كاد محمد صلى الله عليه وسلم يتلقى رسالة ربه
ويدعو الى الدين الجديد ، حتى اخرجت « رقية وام كلثوم »
من بيت ابي لهب ، وردتا الى بيت ابيهما
وكانت قريش قد اثمرت بالرسول في بناته قائلة :

— انكم قد فرغتم محمدا من همه ، فردوا عليه بناته
فاشغلوه بهن

ومشوا الى اصهار الرسول الثلاثة ، فقالوا لهم واحدا
بعد الآخر :

— فارق صاحبك ونحن نزوجك اى امرأة من قريش
شئت

فاما « ابو العاص » فابى مؤثرا صاحبه على نساء قريش
جميعا ، واما ابنا ابي لهب فاستجابا على الفور ، واختار
عتبة زوجة من آل سعيد بن العاص ، بدلا من « رقية بنت
محمد »

وفى الحق ، ان ابنى ابي لهب لم يكونا بحاجة الى سعى
من قريش فى طلاق العروسين ، فلقد تكفلت به « ام جميل
بنت حرب » من قبل ، حين اقسمت الا يظنها وبنتى محمد
سقف ، ثم مازالت بزوجه ابي لهب حتى انارت حفيظته
على البنيتين البريئتين ، فقال لولديه :

— راسى من راسيكما حرام ان لم تطلقا ابنتى محمد .
وكان الظن بابنى العم الا يفعلا

بل كان الظن بالعم الا يقف هذا الموقف من حفيدتى
أخيه عبدالله ، وابنتى محمد الذى ابتهج بمولده واعتق
جاريته حين بشرته به

لكن ام جميل كانت وراءه ، تسوقه امامها مسلوب
النخوة مضيع المروءة فاقد الارادة ، وتسهم الدم الهاشمى
الذى يجرى فى عروقه ، وتنسيه ماتوجهه عليه عمومته
لمحمد من نجدة وحفاظ

لكنما ارادت هذه العبشمية ان تكيد لبني هاشم ، الذين

استأثروا بأكثر المجد والسلطان دون قومها بنى عبد
شمس ، فراحت تفرق شمل الهاشميين وتمزق اواصرهم
وتضرب بعضهم ببعض

أو كأنما أرادت هذه المرأة الحقود ، أن تشفى غليلها من
« خديجة بنت خويلد » التى كانت ملء العيون مهابة
وجلالا ، ملء الآذان عفة وطهرا ، فراحت تؤجج غضب
القوم على محمد ، لتغيظ غريمتها خديجة وتفسد عليها
سعادتها التى كانت مضرب الأمثال .

ولم يكفها أن ردت إليها ابنتها طالقين ، بل خرجت
ومعها زوجها أبو لهب إلى صميم المعركة بين محمد وقريش ،
فما رأى أحد أشد عداوة منهما لنبى الله ، ولا بلغ أحد
من إذاه قدر ما بلغا ، ولا سمع أن أحدا من بنى هاشم
ظاهر قریشا على حفيد هاشم ، كما فعل أبو لهب !

وانه لموقف يدعو حقا إلى الدهشة والعجب

وليس مثار الدهشة أن أبا لهب لم يسلم ، فكذلك
بقى أكثر الهاشميين على دين آبائهم زمنا طالا وقصر ،
لكنهم مع ذلك أبوا أن يخذلوا ابن عبد الله أو يسلموه

أقبل حمزة بن عبد المطلب - أخو أبى لهب - ذات يوم
متوشحاً قوسه عائداً من رحلة صيد ، فلقيته امرأة تقول :
« يا أبا عمار ، لورايت مالى ابن أخيك محمد آنفاً من
أبى الحكم بن هشام ؟ وجده ها هنا جالسا فأذاه وسبه
وبلغ منه ما يكره . »

فاحتمل حمزة الغضب - ولم يكن قد أسلم بعد -
واندفع غير ملق بالآلى أحد فى الطريق ، حتى عثر
بأبى الحكم جالسا فى القوم بالبیت العتيق ، فأقبل نحوه

حتى اذا قام على راسه ، رفع القوس فشجبه به شجرة
منكرة ثم قال :

« اتشتمه وأنا على دينه اقول مايقول ؟ فرد ذلك على
ان استطعت ! »

وهكذا أسلم حمزة ، لأنه لم يطق ان يؤذى ابن اخيه
بمرأى منه او مسمع !

وكذلك لم يطق احد من بنى هاشم ان يخذل محمدا ،
سواء في ذلك الذين أسلموا منهم والذين لم يسلموا ، غير
أبي لهب !

نقل السهيلي رواية عن ابن عباس :

« لما انزل الله تعالى : وانذر عشيرتك الاقربين ، خرج
رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اتى الصفا فصعد
عليه وهتف : واصباحاه ! فلما اجتمعوا اليه قال : ارايتم
لو اخبرتكم ان خيلا تخرج من سفح هذا الجبل ، اكنتم
مصدقى ؟ قالوا : ماجرينا عليك كذبا . قال : « فاني نذير
لكم بين يدي عذاب شديد » فانبرى له ابو لهب قائلا :
« تبأ لك ، الهذا جمعتنا ؟ » فانزل الله تعالى :

« تبت يدا ابي لهب وتب - ما اغنى عنه ماله وما كسب
سيصلى نارا ذات لهب ، وامراته حمالة الحطب - في جيدها
حبل من مسد »

ذلك لانها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول
الله صلى الله عليه وسلم حيث يمر
قال ابن اسحاق :

« فذكر الى ان ام جميل حمالة الحطب ، حين سمعت
ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن ، اتت رسول الله صلى

الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه
ابو بكر الصديق ، وفي يدها فهر من حجارة - قطعة تملأ
الكف - فلما وقفت عليهما اخذ الله ببصرها عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى الا ابا بكر ، فقالت :
يا ابا بكر ، اين صاحبك ، فقد بلغنى انه يهجونى ، والله
لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه . اما والله انى لشاعرة .
ثم قالت :

مذمما عصينا
وامر ابيننا
ودينه قلينا

وانصرفت ، فقال ابو بكر : يا رسول الله ، اما تراها
راتك ؟ فقال : ما رأتنى ، لقد اخذ الله ببصرها عنى . «



وربما استيقظ ضمير ابى لهب مرة ، وغلا في عروقه الدم
الذى يحن الى ابن الاخ ، فثار مغضبا لما يرى من جور قريش
على بنى هاشم . حدثوا أن ابا سلمة المخزومى ابن برة بنت
عبد المطلب ، استجار بخاله ابى طالب ، حين ارادت قريش
ان تفتنه عن اسلامه ، فمشى رجال من بنى مخزوم الى
ابى طالب فقالوا له :
- لقد منعت منا ابن اخيك محمدا ، فمالك ولصاحبنا
تمنعه منا ؟

قال : انه استجار بى وهو ابن اختى ، فان انا لم امنع
ابن اختى لم امنع ابن اخى
وكان ابو لهب حاضرا ، فقال مغضبا : يا معشر قريش ،

والله لقد اكرتم على هذا الشيخ ! ما تزالون تتوثبون عليه
في جواره من بين قومه ، والله لتنتهن عنه او لنقومن معه
في كل مقام فيه حتى يبلغ ما اراد

فآثروا ان يبقوا على نصره لهم وقالوا :
« بل ننصرف عما تكره يا ابا عتبة » السيرة ١٠/٢
لكنها مرة واحدة يتيمة ، لم يذكر الرواة ان « ابا لهب » وقف
مثلها اخرى ، بل ظل على مظاهرتة اعداء قومه حتى مات
واعشى سحر « ام جميل » عينيه فلم يعد يبصر ، وقذف
به وراء هاشميته ورجولته ، بل وراء الانسانية جميعا

حدثوا ان بنى هاشم والمؤمنين حين جهدوا من ضيق
الحصار في شعب ابي طالب ، كانوا اذا قدمت العير مكة
واتى احدهم السوق ليشتري شيئا من الطعام لعياله ،
يقوم ابو لهب عدو الله فيقول : يا معشر التجار ، غالوا على
اصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا ، فقد علمتم
مالى ووفاء ذمتى ، فانا ضامن الا خسار عليكم

فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها اضعافا ، حتى يرجع
المسلم او الهاشمى الى اطفاله وهم يتضاغون من الجوع
واليس في يديه شيء يطعمهم به . ويغدو التجار على ابي
لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس ، حتى
جهد المسلمون ومن معهم من بنى هاشم جوعا وعريا



وادع الخبر بغير تعليق ، وادع معه ذلك الاستطراد
الطويل الذى مضيت فيه بالرغم منى ، مستثارة بما
قرأت عن ابي لهب وانا التمس اخبار ابنتى محمد ، في

زواجهما الخائب بابنى ذلك العم الجاحد العاق ، وعودتهما
الى ابويهما ، شفاء لحقد حماتهما ام جميل بنت حرب ،
حمالة الحطب

وبين هاتيك السطور التى نقلتها ، اقرا مالم يكتب عن
معاملة هذه العبشمية لابنتى محمد ، اذا صحت الرواية
القائلة بأن الطلاق تم بعد انتقالهما الى بيت ابى لهب ، وليس
قبل الدخول بهما كما تقول رواية اخرى « الاصابة ٣٨/٨ »
واكاد المحهما وراء هذا كله ، فى تجربتهما القاسية المرة ،
حين غادرتا بيتهما الاول الذى تظله اجنحة الحب والسلام ،
الى بيت كهذا حيث تتلقاهما - وهما فى جلوة العرس - امرأة
سليطة ركبها الشيطان ، فتلقى عليهما ظلها الثقيل صباح
مساء ، وترصد حركاتهما وسكناتهما ، وتحاسبهما على
النظرة والهمسة واللفتة ، وتنقم عليهما ما ترى فى سمتهما
النبل وملاصقتهما اللطيفة ، من مخايل السيدة « خديجة
بنت خويلد » موضع غيرتها وحسدها

فاذا قابلت العروسان صنيع حماتهما بالتجمل والصبر ،
اساءت الظن بوداعتهما فحملتها محمل الازدراء والترفع ،
وازدادت لذلك شراسة وغلظة وجفاء

ولم تفكر احداهما فى الشكوى لابويهما ، فقد كانتا ابر
بهما من ان تروعهما بالحديث عن افاعيل « ام جميل »
وكان الظن ان تجد كل منهما فى اختها متنفسا لكرهها
وموضعا لشكاتها ، لولا ان « ام جميل » كانت هنالك دائما ،
تقف لهما بالمرصاد ، وتأبى ما وسعها الجهد ان تخلو الاخت
باختها ، ولو استطاعت لاقامت بينهما سدا

وهكذا احتملت ابنتا محمد في صمت وصبر ،
حتى اراحهما الله من ذاك الكرب ، ونجاهما من كيد حمالة
الخطب وعيشتها الغبراء !



على ان الحياة في بيت ابيهما - صلى الله عليه وسلم -
كانت قد تغيرت عما ألفتا في امسهما السعيد ، فولى عنها
ما كانت تنعم به من راحة وهدوء

اولم يقل الرسول لزوجته : « مضى عهد النوم يا خديجة ! »
بلى ، وجاء عهد السهد والاضطهاد والامتحان والعذاب
في سبيل الله ، وان النبي ليعود الى بيته كلما خرج ، محزوناً
لما يجد من عنت قومه وصدهم عن سبيل الله ، فما تزال
السيدة خديجة تثبته وتهون عليه ما يلقي ، حتى يزول
ما به من حزن

ومع كل هذا العذاب ، طاب لرقية وام كلثوم ان تشاطرا
ابويهما ما يلقيان في سبيل الله ، وارتاحت نفسيهما لاحتمال
كل صنوف الازى ، واستعذبتا الالم والتضحية في تلك
المعركة المقدسة

وخاب ظن حمالة الخطب وظن المشركين من قريش ، فلم
يشغل « محمد » - صلى الله عليه وسلم - بابنتيه عن
دعوته ، ولم يشق عليه رجوعهما الى بيته ، فقد نجاهما
الله من محنة العيش مع ابني حمالة الخطب ، ثم ما لبث ان
ابدهما خيراً منهما : زوجاً صالحاً كريماً ، من النفر الثمانية
الذين سبقوا الى الاسلام ، واحد العشرة المشهود لهم بالجنة
ذلك هو « عثمان بن عفان بن ابي العاص بن امية بن عبد شمس »

اعزه الله في الجاهلية فكان من اعرق فتيان قريش نسبا ، يلتقى مع الرسول الكريم من جهة الاب عند عبد مناف بن قصي ، ومن ناحية الام عند عبد المطلب بن هاشم ، فجدة عثمان لأمه ، هي البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب جد النبي وكان الى هذا النسب العريق ، بهي الطلعة ، فخم السميت مرفور المال ، رضى الخلق

ثم اعزه الله في الاسلام فكان من السابقين الاولين تقدم « عثمان » الى رسول الله يسأله شرف المصاهرة ، فزوجه صلى الله عليه وسلم ابنته « رقية » ، ولم ير زوجان قط اجمل منهما ولا ابهى

ولم تشارك « مكة » هذه المرة في الاحتفال بالعرس البهى ، بل باتت قريش بغيظها مسهدة تفكر في هذا الخصم العنيد الذى يزداد على الاضطهاد قوة وثباتا ، ويتحصدى في قلة عزلاء من صحابته ، قبائل قريش مجتمعة ، وفيها الجاه والكثرة والبأس !

وعجبت هؤلاء النفر الذين اتبعوه ، يؤثرونه على انفسهم واهليهم واموالهم ، ولا يترددون في افتدائه بالمهج والارواح ، بل يرون الاستشهاد معه او في سبيله مجدا وانتصارا

من هؤلاء ، من كان بالامس له عدوا ، ومنهم من تردد امدا قبل ان يؤمن برسالته ، ولكنهم جميعا ما كادوا يسلمون حتى التفوا حوله يبذلون له الحب محضا خالصا على نحو لا تعرف الدنيا له مثيلا

وتذاكرت قريش ليلتئذ صبر المسلمين على محنة

التعذيب في مستهل المبعث ، فقد « وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة اذا اشتد الحر » حتى يفتنوه عن دينهم ، فيؤثر أحدهم أن يموت على أن يردد الى دين الكثرة الغالبة !

وطال ليل قريش وهى تذكر « عثمان بن عفان » الذى رضى ان يبيع اهله وعشيرته ودنياه فى سبيل رضى محمد وربه ، وانه ليعلم ما يلقى اصحاب « محمد » من اذى ، ويقدر انه باتباعه الدين الجديد ، قد حكم على نفسه بالنبد من المجتمع القرشى الذى احله مكانا مرموقا



ولو نظرت قريش ليلتئذ بظهر الغيب ، لرات فتى امية : « عثمان بن عفان » يهاجر من مكة ، موطن آبائه ومهد طفولته ومناطق عزته ، الى بلد ناء وقوم غرباء

« ذلك ان محمدا - صلى الله عليه وسلم - لما رأى ما يصيب اصحابه من البلاء ، وانه لا يقدر ان يمنعهم ، قال لهم : او خرجتم الى ارض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده احد ، وهى ارض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا معا انتم فيه ! »

فكان «عثمان بن عفان» اول من هاجر الى الحبشة ، وهاجرت معه زوجته السيدة «رقية» على قرب عهدهما بالزواج

وتجلد المهاجر وهو يلقى نظرة وداع على البلد الحبيب اما «رقية» فلم تملك دمعها ، وهى تطوف بمغانى صباها

مودعة ، وتعانق اباهما وامها واخواتها الثلاث ، قبل ان تتبع
زوجها الى ذلك البلد النائي المجهول
وتمهلت في مسيرها الى حيث كانت راحلتها تنتظر ، فلما
آن أوان الرحيل تلفت وراءها لتملأ عينها من الوطن فحال
الدمع دون ما تبغى

وكذلك سارت الجمال وئيدا تريد ان تتزود من عبر
أم القرى ، فلما خرجت الى الصحراء العارية الجسرداء ،
انطلقت خفافا ، تتسمع غناء الحادي :

الاهل والأوطان فراقهم صعب
لكنه الأيمان فداؤه القلب
والروح والأبدان فليقبل الرب
فليقبل الرب

وهز الصوت الشجي قلب « رقية » فأصغت اليه وهي
ترتجف انفعالا وتأثرا ، ثم أطلت من هودجها لعل أثرا من
مكة لا يزال يلوح من بعيد ، فاذا زوجها « عثمان » على قيد
خطوة منها ، يرنو اليها في عطف مشوب بالعتاب !
وفهمت « رقية » ما يهجس في خاطره ، فأشرق وجهها
بابتسامة وضيئة وقالت :

— الله معنا ، ومع الذين تركناهم برغمنا في جوار البيت
العتيق

ثم استدبرت أحب أرض ، وقد هون عليها محنة الفراق
ان « عثمان » الى جانبها ، واكرم به صاحبا وعشيرا



وفي أول مرحلة من الطريق ، أناخت الإبل ريثما تجمع

المهاجرون الاولون في سبيل الله ، فبلغت عدتهم عشرة ، فيهم من
بنى عبد شمس - آل عثمان - أبو حذيفة بن عتبة بن
ربيعة بن عبد شمس ، أخو هند ، وصهر أبي سفيان ،
تصحبته زوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو العامرية
ومن بنى اسد بن عبد العزى بن قصي - أخوال رقية -
الزبير بن العوام بن خويلد

ومن بنى عبد الدار بن قصي - أبناء عم عثمان ورقية -
مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار
ومن بنى زهرة - أخوال الرسول - عبد الرحمن بن
عوف الزهري

ومن بنى مخزوم ، عبد الله بن عبد الاسد ، ابن عمه
الرسول ، برة بنت عبد المطلب ، تصحبته زوجته هند بنت
زاد الركب ، ابى امية بن المغيرة المخزومي التي تزوجها
الرسول بعد « أحد »

وتبادل المهاجرون الاولون تحية الاسلام ، ثم قاموا جميعا
للصلاة ، يؤمهم عثمان بن مظعون الجمحي صاحب الرسول ،
فلما قضوا الصلاة رفعوا وجوههم الى السماء يدعون الله
ان ينصر دينه ، ويحمي رسوله من كيد المشركين
واستقبلوا الجنوب راحلين ، وقد استمروا ما يملأ
قلوبهم من شجن ، وطاب لهم ان يكتبوا بنار الغربة في سبيل
دينهم الحق ، والتمسوا العوض عن فارقوا من الاهل
والاحباب ، في هؤلاء الصحب الكرام ، رفاق السيف
والاخوان في الدين والهجرة



ورحبت الحبشة بالمهاجرين الاولين ، واوسعت لهم في

ارضها مكانا سهلا ، ثم مالبت ان استقبلت افواجا جديدة
من اخوانهم المسلمين ، حتى بلغت عدتهم ثلاثة وثمانين
غير أبنائهم الذين خرجوا بهم صفارا ، أو ولدوا في المهجر
وسر «رقية» أن تجد فيهم من بنى هاشم : ابن عم أبيها
«جعفر بن أبي طالب» ، ومعه امرأته «أسماء بنت عميس»
ومن بنى أمية ، آل زوجها عثمان ، عمرو بن سعيد
ابن العاص بن أمية ، وأخاه خالد ، ومعهما زوجتاها

ومن بنى أسد ، عبد الله بن جحش - ابن أميمة بنت
عبد المطلب عمه الرسول - وأخاه عبيد الله ، معه امرأته
أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، التي تزوجها الرسول
بعد سنين

ومن اخوالها بنى زهرة ، عامر بن أبي وقاص بن أهيب
ابن عبد مناف بن زهرة

ومن بنى عامر ، ثمانية نفر منهم السكران بن عمرو ،
ومعه امرأته سودة بنت زمعة بن قيس ، التي تزوجها
الرسول بعد عام الحزن

وأحاط المهاجرون العشرة الأولون بالوافدين يسألونهم
كيف تركوا الرسول ، وكيف حال الأهل والصحابة بمكة ؟
قالوا : على العهد بهم ، لم ينسوا من هاجروا ..

وحدثوا أن «النبي» افتقد أنباء ابنته ، حتى أتت امرأة
أخبرته صلى الله عليه وسلم أنها رأت رقية وزوجها ،
فقال :

«منحهما الله ، ان عثمان أول من هاجر بأهله»

الاصابة ٨٣/٨

٥ - بنات النبي

لم تضق الحبشة بالوافدين الثمانين ، كما لم تضق بمن
سبقوهم ، بل أمنهم «النجاشي» وأحسن جوارهم ، وتركهم
أحرارا يعبدون الله لا يخافون على ذلك أحدا . .
هنالك رفع « عبد الله بن الحارث بن قيس » صوته
منسندا وهو يرجو أن يسمع من بمكة :

ياراكبا بلفن غنى مغفلة
من كان يرجو بلاغ الله والدين
كل أمرىء من عباد الله مضطهد
ببطن مكة مقهور ومفتون
أنا وجدنا بلاد الله وأسعة
تنجى من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز
ى فى الممات وعيب غير مأمون
ثم انشئ الى قلبه المثل بأشجان الغربة ، فهاجت مواجعه
لما ذكر من بغى قريش ، وقال :

أبت كبدى - لا أكذبك - قتالهم
على ، وتأباه على أناملى
وكيف قتالى معشرا أدبوكم
على الحق أن لا تأشبهه بباطل
وقال « عثمان بن مظعون » يعاتب ابن عمه وكان شريفا
فى قومه :

أخرجتنى من بطن مكة آمنا
واسكنتنى فى صرح بيضاء تقذع
تريش نبالا لا يواتيك ريشها
وتبرى نبالا ريشها لك اجمع

وحاربت اقواما كراما أعزة
واهلكت اقواما بهم كنت تفزع
ستعلم ان نابتك يوما ملمة
واسلمك الاوباش ، ماكنت تصنع !
وبلغت هذه الاصوات ومثلها مكة ، فأفزعت قريشا
فوق ما بها من فزع

واطار النوم من عيونها ، ان اصحاب محمد قد امنوا
بأرض الحبشة واصابوا بها دارا وقرارا ، فائتمر المشركون
بينهم ان يبعثوا منهم رجلين من دهاتهم ، لكي يفسدوا ما بين
النجاشي وبين المهاجرين المغتربين

ووقع اختيارهم على عبد الله بن ابي ربيعة - والد عمر -
وعمر بن العاص بن وائل ، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي
ولبطارقتة ، فانطلقا بها على مرأى ومسمع من محمد صلى
الله عليه وسلم ، ومن بقى الى جانبه من اصحابه وآله
واشفق « ابو طالب » على من بأرض الحبشة - وفيهم
ولده جعفر ، وولدا ابنتيه أميمة وبرة ، ورقية حفيدة
اخيه عبد الله - من مكيدة عمرو وصاحبه ، فأنشد شعرا
يستثير فيه كرم « النجاشي » ويحضه على ان يحمي
جواره :

ألا ليت شعري كيف في النأي « جعفر »
وعمر ، وأعداء العدو الاقارب ؟
وهل نالت فعال النجاشي جعفرا
وأصحابه ، أو عاق ذلك شاغب ؟
تعلم ، ابيت اللعن ، انك ماجد
كريم ، فلا يشقى لديك المجانب

وانك فيض ذو سـجـال غزيرة
ينال الاعادي نفعها والاقارب
فهزت قريش رأسها لما سمعت نداءه ، وقال قائلها
مستهزئا : ما يبلغ صوت الشيخ من مكيدة عمرو وصاحبه؟
وماذا تجدى الكلمات مع الهدايا التي حملها مبعوثا مكة
الى النجاشي وبطارقته ؟



وكان المهاجرون في مقامهم النائي ، يرهفون أسماعهم الى
ماتناثر من شائعات شتى مبهمة عن أئتمار قريش بالمسلمين
المغتربين فلا يكادون يلقون اليها بالا ، حتى رابهم ذات يوم
وصول عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة الى هناك
والتماسهما لقاء البطارقة واحدا بعد الآخر
ثم ما لبث المهاجرون أن تلقوا دعوة النجاشي ليتحدث
اليهم في امر ذي بال ، فذهبوا وهم يتساءلون :
— ماتقولون للرجل اذا جئتموه ؟
وكان الجواب الذي اجمعوا عليه :
— نقول والله ما علمنا ، وما امرنا به نبينا
وسعت المهاجرات الى منزل رقية بنت النبي ، وقد
خامرهن شيء من القلق ، فاذا لديها « أم سلمة ، هند بنت
زاد الركب » تحدث عما علمت من مكيدة الرجلين
قالت :

— هو ما سمعتن من أئتمار قريش بنا لما بلغها أنا جاورنا
بالحبشة خير جار : أمنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى

لا تؤذى ولا تسمع شيئاً نكرهه ، فبعثوا هذين الرجلين
معهما هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وقالوا لهما أن
يدفعا الى كل بطريق هديته ، قبل أن يكلما النجاشي فينا ،
ثم يقدمنا الى النجاشي هديته ، ويسألاه أن يسلمنا إليهما
قبل أن يكلمنا

« فخرجا حتى قدما الحبشة ، ففعلا . . وقالا لكل
بطريق منهم : انه قد ضوى الى بلد الملك غلمان منا سفهاء
فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين
مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا الى الملك فيهم
أشراف قومهم ليردهم اليهم ، فاذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا
عليه بأن يسلمهم الينا ولا يكلمهم ، فان قومهم أعلى بهم
عينا - أبصر بهم - واعلم بما عابوا عليهم

« فوعدهما البطارقة خيرا ، ثم انهما قدما هداياهما الى
النجاشي فقبلها منهما ، ثم كلماه بمثل ما كلما به البطارقة ،
فقالت البطارقة حوله : صدقا ايها الملك ، قومهم أعلى بهم
عينا واعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم اليهما فليردهم الى
بلادهم وقومهم

« فغضب النجاشي وقال : لاها الله ! اذن لا اسلمهم اليهما
ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادى واختاروني على سواى
حتى ادعوهم فأسألهم عما يقول هذان في امرهم ، فان كانوا
كما يقولان اسلمتهم اليهما ورددتهم الى قومهم ، وان كانوا
على غير ذلك منعتهم منهما واحسنت جوارهم ما جاوروني
« وهذا هو قد أرسل الى رجالنا يدعوهم ، فلننتظر
ما الله يرضى لنا »

وطال انتظارهن قبل ان يعود الرجال من قصر النجاشي
ويحدثوا عما كان :

استقبلهم النجاشي وقد جمع اساقفته حوله ومعهم
صحفهم منشورة ، فسألهم :

— ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به
في ديني ولا في دين احد من هذه الملل ؟

فاجاب عنهم « جعفر بن ابي طالب » :

— ايها الملك ، كنا قوما اهل جاهلية نعبد الاصنام وتأكل
الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار ويأكل
القوى منا الضعيف ، حتى بعث الله الينا رسولا منا عرف
نسبه وصدقه وامانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبد
ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا دونه من الحجارة والاوثنان،
وأمرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الرحم وحسن
الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش
وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا
ان نعبد الله وحده لا نشارك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة
والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله
فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة
الاوثنان عن عبادة الله تعالى ، وان نستحل ما كنا نستحل من
الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا
وبين ديننا ، خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ،
ورغبنا في جوارك ورجونا الا نظلم عندك ايها الملك »

فصمت النجاشي مليا ثم سأل :

— هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟

اجاب جعفر : نعم

قال النجاشي : فاقراه على
فتلا جعفر صدرا من سورة مريم
قالوا : فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكت
اساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم ، ثم قال :
- ان هذا والذي جاء به « عيسى » ليخرج من مشكاة
واحدة

والتفت الى عمرو وعبد الله قائلا :
- انطلقا ، فلا والله لا اسلمهم اليكم ولا يكادون
فانصرفا ، اما عمرو فلم يفقد ثقته في دهائه ولا استسلم
للهزيمة صاغرا ، بل قال مهددا : والله لآتينه غدا عنهم بما
استأصل به خضراءهم - يعنى شجرتهم التى منها تفرعوا -
واما عبد الله بن ابي ربيعة ، فأخجله ان يكون النجاشي
الغريب ، ابر بجيرانه منه ، وما فيهم من لا يمت اليه بقربى
أو رحم

قال لعمرو : لانفعل ، فان لهم ارحاما وان كانوا قد
خالفونا

ورد « عمرو » فى اصرار :

- والله لا خبرنه انهم يزعمون ان عيسى بن مريم عبد !
ومضى النهار كله وقطعة من الليل ، وعمرو بن العاص
يدبر لفده ، اما المهاجرون فباتوا آمنين لا يخافون من النجاشي
غذرا ، وقد اجمعوا رأيهم ان يجيبوه اذا سألهم عن عيسى
بن مريم ، بما قال الله وما جاءهم به نبيهم محمد ، وليكن
بعد ذلك ما يكون

فلما اصبحوا دعاهم النجاشي وسألهم عما يقولون فى
عيسى فأجاب جعفر :

— نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم :
هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء
البتول

قالوا : فمد النجاشى يده الى الارض فأخذ منها عودا
وقال لجعفر :

— والله ما عدا عيسى بن مريم ماقلت هذا العود . .
ثم أمسك لحظة ، وجعل ينقل بصره بين البطارقة ،
وعمره وصاحبه ، حتى استقر على المهاجرين فقال :
« اذهبوا فأنتم آمنون بأرضى ، من سبكم غرم — كررها
ثلاثا — وما أحب أن لى جبلا من ذهب ، وأنى آذيت رجلا
منكم »

والتفت من بعد ذلك الى بطارقته قائلا :
« ردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لى بها ، فوالله
ما اخذ الله منى الرشوة حتى رد على ملكى فأخذ الرشوة
فيه ، وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه »
ورجع عمرو وعبد الله الى قريش بخفى حنين



وأقام المهاجرون مع خير جار ماشاء الله لهم أن يقيموا
على أن قلوبهم ظلت أبدا تنزع الى مكة ، وتحن الى من
تركوا بها من الاهل والاحباب
وظلت أسماعهم مرهفة ، تتلهف على انباء الرسول
وصحبه فى حربهم المقدسة مع عبدة الاوثان
ولعل السيدة « رقية » كانت أشد المهاجرين حنينا
الى مكة ، ولعلها ما افتقدت أبويها وأخواتها من قبل ، مثلما

افتقدتهم آنذاك ، فلقد أثرت الاحداث الشداد التي مرت
بها في صحتها ايما تأثير ، فأسقطت جنينها الاول ، حتى
خيف عليها من فرط الضعف والاعياء

لكنها وجدت من رعاية زوجها وحبه ، ومن عطف
المهاجرين وعنايتهم ، ما أعانها على اجتياز الازمة الحرجة ،
ريثما عاودتها العافية بورود الانباء من مكة ، ان قريشا
يُست من الرسول وصحبه ، فرفعت الحصار المنهك
الذي ضربته على الهاشميين

وأضافت الشائعات ان قريشا ثابت الى رشدتها لما رأت
من عجب ثابت النبي وصدق ايمان الذين اتبعوه ، فمالت
طائفة منها الى الاسلام عن تأثر واقتناع ، ورغبت اخرى
فيه التماسا للغنم والمجد حين يعلو امر محمد وينتشر
الدين الجديد

وقد أصغى مهاجرة الحبشة الى هذا الذي قيل وشاع
فهفت قلوبهم الى العودة الى الوطن

ولم يقو بعضهم على مغالبة ذلك الحنين المستثار ،
فتهيئوا للرحيل على عجل ، يحدوهم الشوق الى احب
ارض واعز موضع ، على حين آثر آخرون ان يتلبشوا في
مهجرتهم ، ريثما يستيقنون مما قيل عن مهادنة قريش
للرسول صلى الله عليه وسلم واسلام كثرة منها



سار الركب في طريق مكة ، وقد بلغ عددهم ثلاثة وثلاثين
رجلا يتقدمهم « عثمان بن عفان » وزوجته السيدة

« رقية » والزبير بن العوام ابن اخت السيدة خديجة ،
وعبد الله بن جحش ابن عمه الرسول ، وأبو سلمة بن عبد
الاسد معه امرأته « أم سلمة ، هند بنت ابي أمية » ،
والسكران بن عمرو معه امرأته « سودة بنت زمعة »

وراحوا خلال سفرهم الطويل يعللون انفسهم بلقاء
الاحباب ، ويتشاغلون بتمثل ما ينتظرهم في الوطن من
أنس وطمأنينة

حتى اذا عبروا البحر واستقلوا رواحهم ساعين الى
البلد العتيق ، خدرتهم النشوة وتركوا خيالهم يحملهم على
اجنحته السحرية الى وادي الاحلام

الى أن بلغوا مشارف مكة ، فكانت اليقظة المروعة ..
فهناك على الصخور الملتهبة ، راوا بعيونهم التي مازالت
بها بقية من خدر النشوة ، نفرا من اخوانهم المسلمين
المستضعفين ، تسومهم زبانية قريش سوء العذاب

واخذت العائدين صيحات من هنا ومن هناك ، تعدهم
بالويل والهلاك

وصمت الحادي ، وطارت النشوة ، وتمزقت الرؤى ،
وتبعثرت الاحلام



ولبثوا هنالك يومهم ، حتى اذا ادبر النهار دخل بعضهم
مكة في جوار من الوليد بن المغيرة المخزومي ، او ابي طالب
ابن عبد المطلب الهاشمي

وعلى اثرهم دخل الباكون مستجيرين بالحرم الاقدس ،
وعلى وجوههم نور الاستشهاد

وآبت « رقية » الى بيت أبيها مشوقة مجهدة ، فخفت
أختها أم كلثوم وفاطمة للقائها ، وتشبثتا بها معانقتين ،
وهما تغالبان الدمع وتكلفان التجلد

وأفلتت من عناقهما وسألت مستريبة :

— أين أبى ، وأين أمى ؟

اجابتا :

— أبوك بخير ، وقد خرج للقاء العائدين معك من مهاجرة

الحبشة

ثم اختلجت شفاهما فى تأوه مكتوم

وعادت رقية تسأل وقد أوجست خيفة :

— وأمى ، أين هى ؟

فأطرقت « أم كلثوم » صامتة لا تجيب ، أما « فاطمة »

فغادرت الغرفة وهى تنشج باكية

هنالك كفت « رقية » عن أسئلتها ، وسارت مترنحة

نحو مخدع أمها الراحلة حيث تهالكت على فراشها جامدة

العين زائفة البصر ، مثلجة الاطراف

الى ان جاء أبوها صلى الله عليه وسلم ، فأذاب ذلك

الجمود القاتل بحرارة لقائه ، وأزاح بحنوه ذلك الركام

الصخرى الذى جثم على قلب فتاته

واسعفها الدمع ماشاء لها حزنها ولوعتها ، ثم أوت الى

الصدر الرحب الكريم ، وثابت الى السكينة والصبر



لم يطل بها المقام بمكة بعد ذاك ..

هاجر أبوها النبى الى يثرب ، وكذلك هاجرت هى فى

صحبة زوجها « عثمان بن عفان »
وفي دار الهجرة ، وضعت طفلها عبد الله بن عثمان ،
فملاً عليها منزلها الجديد أنسا ، وأقبلت عليه تريد أن تنسى
به مرارة ثكلها لجنينها البكر ، ولوعة مصابها في أمها ،
وماذاقت في هجرتها من شجن الغربية
وحسبت انها قد استوفت حظها من الآلام ، لكن الله
تعالى امتحنها بمصاب جديد

مات « عبد الله » طفلاً بنقرة من ديك ، فترنحت رقية
تحت وطأة الثكل المرير المضاعف ، صريعة الحمى
وأقام « عثمان » إلى جانبها يمرضها ويرعاها ، حتى
إذا تنأهى إلى سمعه صوت داعى الرسول يؤذن أن حى
على الجهاد ، ويستنفر المهاجرين والانصار للقاء عدوهم في
« بدر » ، ود عثمان لو لى الداعى الكريم ، لكن قلبه لم
يطاوعه على فراق « رقية » التى كانت تعالج ما يشبهه
سكرات الموت ، فتخلف عن شهود موقعة بدر مكرها ،
وراح يشهد معركة الموت فى أعز من له !
وقسا الصراع وطال ، ثم رفت روحها على شفيتها فى
حشجة وانية ، فحطت عيناها على زوجها المعذب ، وغابت
عن الوجود

وقام « عثمان » فأغمض عينيها واثم جبينها وأناملها
ثم أصغى إلى هتاف البشرى بانتصار المسلمين فى « بدر »



وجاء الاب الثاكل فدنا من ابنته الراقدة يودعها بادی
الحزن والاسى ، ثم انشئ فى رفق نحو ابنته « فاطمة » التى

أكبت على مضجع أختها تبكى ، فجعل يمسح دموعها
بطرف ثوبه (الإصابة ٨/ ٨٣)

وهنا لم تتمالك النساء أنفسهن أمام المشهد الفاجع ،
فانسحبن خارج الغرفة مجهشات بالبكاء وقد تخلى عنهن
ماكن يصطنعن في حضرة الرسول من تجمل وتصبر

وهاج نحيبهن غضب « عمر بن الخطاب » فزجرهن في
عنف وقسوة ، محاولا أن يأخذهن بما يجب لمثل هذا
المكان من سكينة ووقار ، لكن الرسول الرحيم كفه عنهن
قائلا :

« مهما يكن من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ،
ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان »
وصلى الاب النبي على ابنته رقية

وشيعت « يثرب » جثمان بنت الرسول ، ذات الهجرتين ،
حتى ووريت الثرى الطيب الذى ارتوى يومئذ بدماء الابرار
من شهداء « بدر »



أُمِّ كُلْشُوم

عودة الى البيت
الهجرة
مع رقية دائما
الرحيل

أراد الله بها خيرا ففارقها « عتيبة بن عدو الله أبى لهب »
ونجت بذلك الفراق من نكد العيش مع « حمالة الخطب »
كما نجت معها اختها العزيزة « رقية » التى ما لبثت أن
تزوجت « عثمان بن عفان » وهاجرت معه الى الحبشة
وبقيت « أم كلثوم » مع أختها الصغرى « فاطمة » فى
بيت أبيهما الرسول بمكة ، تشاركان أم المؤمنين الاولى
عبيها الجليل ، وتستقبلان معها البطل النبى اذ يعود كل
يوم الى بيته ، وعلى جسمه الكريم ندوب المعركة ، وعلى
ثيابه الطاهرة آثار ما كان يلقى من اذى قريش وحربها ، فيحطن
به فى بر وحنو ، يحاولن ما استطعن أن ينفضن عنه هذه
الآثار ، وأن يروحن عنه فى الفترات القليلة التى كان يسكن
فيها الى بيته وأهله

وهكذا عاشت « أم كلثوم » مع أسرتها فى صميم معركة
الاضطهاد الاولى التى بلغت أقصى ذروتها حين يئست
قريش من خذلان أبى طالب لابن أخيه ، وخاب سعيها لديه
كيما يسلمه الى أعدائه فيبطشوا به

ثم أسلم حمزة بن عبد المطلب ، وأسلم عمر بن الخطاب ،
فطار صواب قريش وتخلى عن رجالها ما عرفوا به من
رشد وحلم ، فائثمروا بينهم على مقاطعة بنى هاشم ،
وسجلوا مقاطعتهم فى وثيقة علقوها فى جوف الكعبة ،
وخرج محمد بأسرته ومن تبعه الى شعب أبى طالب ،

وانحازت اليه بنو هاشم وبنو عبد المطلب غير أبى لهب
وهناك عاشوا في ضيق الحصار ، حتى أنهم كانوا
يأكلون الخبط وورق السمر ، وأقاموا على ذلك نحو ثلاث
سنين لا يصل اليهم شيء الا سرا

حدثوا أن أبا جهل بن هشام ، لمح حكيم بن حزام بن
خويلد الاسدي ، يسير متخفيا معه غلام يحمل قمحا ،
يريد به عمته خديجة بنت خويلد ، وهى مع زوجها
الرسول وبنتيها أم كلثوم وفاطمة في الشعب ، فتعلق به
أبو جهل وصاح :

« أتذهب بالطعام الى بنى هاشم ؟ والله لا تبرح أنت
وطعامك حتى أفضحك بمكة ! »

حتى بلغ منهم الجوع مبلغا يصوره لنا قول سعد بن
أبى وقاص بعد محنة الحصار بسنين :

« لقد جعت حتى انى وطئت ذات ليلة على شيء رطب
فوضعتة فى فمى وبلعته وما أدري ما هو الى الآن ! »



ومن عجب أن ذلك السهم الذى راشتة قريش ، ارتد
عن المؤمنين دون أن يززع ايمانهم مثقال ذرة ، أو يزحزحهم
عن موقفهم من نصره الرسول قيد شعرة ، وعاد منطلقا
الى معسكر قريش فأصاب منها مقتلا !

ذلك أن نفرا من مشركى قريش ، روعهم الحصار
الوحشى المضروب على المؤمنين منهم ، فثارت ضمائرهم
وسلطت عليهم سوط عذاب

وبدا الحصار يهتز ويتداعى تحت وطأة الندم وعذاب
الضمير ..

حدثوا ان هشام بن عمرو بن ربيعة العامري - وكان
ابن اخى نضلة بن هاشم لأمه - كان يأتي ليلا بالبعير قد
أوقره طعاما ، حتى اذا بلغ به فم الشعب ، خلع خطامه
من رأسه ثم ضرب على جنبه ، فیدخل البعير على بنى
هاشم وبنى عبد المطلب ، بما يحمل

وذاث ليلة ، خرج الرسول الى قريب من فم الشعب
يستقبل البعير الموقر طعاما ، كيما يشرف على توزيعه في
ذوى العيال ممن معه ، وسهرت « أم كلثوم » عند فراش
أمها التى علت بها السن وأنهكتها الاحداث واحست دنو
اجلها ، وان بدا انها تقاوم الضعف والمرض ببسالة ،
وتتشبث بالحياة من أجل زوجها الحبيب ، ومن أجل
بنتيها أم كلثوم وفاطمة

وقالت تناجي ابنتها :

- ليت الأجل يمهلى حتى تنجلي المحنة ، قاموت
قريرة العين راضية

فهمت « أم كلثوم » من كل قلبها :

- لا بأس عليك يا أماء !

ثم خنقتها العبرات فلم تزد
واستطردت الأم :

- اى وربى لا بأس على يا ابنتى ! ما من امرأة في قریش
ذاقت ما ذقت من نعيم ! بل ما من امرأة في هذه الدنيا
نالت مثل الذى نلت من مجد : حسبى من حياتى انى
زوجة الحبيب المصطفى ، وحسبى من آخرتى اننى المؤمنة
الأولى ، وانى أم المؤمنين
ثم اسبلت عينيها وهمست :

— اللهم انى لا أحصى ثناء عليك ! اللهم انى لا أكره لقاءك؛
ولكنى أطمع فى مزيد من لذة التضحية و قدسية الألم
وشرف الاستشهاد ، لأكون جديرة بما أنعمت على !
واحترض الضوء النحيل الشاحب الذى كانت تبعثه
ذباله واهية ، وشمل الكون سكون خاشع ، وأرهف الليل
سمعه لهذه النجوى المؤثرة ، فلم يعد يسمع فيه سوى
أنفاس أم المؤمنين ، وخفقات قلب ابنتها التى راحت تتعبد
صامته

ثم . . فتح الباب ، فانبثق منه شعاع من نور باهر
أضاء المخدع ، ودخل رسول الله بهى الطلعة متهلل
الأسارير ، فما كادت زوجته تلمحه حتى نهضت للقاءه
بوجه مشرق وقد سرى فى بدنها الكليل فيض من القوة
والعافية

وأصغت « أم كلثوم » الى ما كان أبوها — عليه الصلاة
والسلام — يحمل من الأنباء ، فأحست كأن ظلام الليل
ينقشع رويدا رويدا ، كيما يفسح المجال لنور فجر جديد
فلقد عاد العم « أبو طالب » فى ليلته تلك من زيارة
الحرم الأقدس ، ليحدث من فى الشعب عما رأى هنالك
وما سمع :

قال ان هشام بن عمرو — ذاك الذى كان يحمل المئونة
الى المحاصرين ليلا — مشى الى زهير بن زاد الركب ابى أمية
المخزومى ، اخى هند أم سلمة ، وابن عاتكة بنت عبد المطلب ،
فقال له :

— يا زهير ، أقدرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب
وتنكح النساء ، وأخوالك حيث علمت ؟ أما انى أحلف بالله

أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ، ثم دعوته الى مثل
ما دعاك اليه من مقاطعتهم ، ما اجابك اليه أبدا !
فأصغى زهير ، وفكر مليا ثم سأل :

— ويحك ياهشام ! فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ،
والله لو كان معي رجل آخر لقت في نقض الصحيفة
حتى أنقضها

قال هشام :

— قد وجدت رجلا

فسأله : من هو ؟

اجاب : أنا ...

قال زهير : أبغنا رجلا ثالثا

فذهب هشام الى المطعم بن عدى بن نوفل بن عبدمناف ،
فقال له : يامطعم ، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد
مناف وانت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ؟ أما والله
لئن أمكنتموهم من هذه ، لتجدنهم اليها منكم سراعا

فكان جواب مطعم كجواب زهير

ومضى هشام بعد ذلك الى أبي البختري بن هشام فحدثه
بمثل ما حدث به صاحبيه زهيرا ومطعما ، فسأله أبو
البختري :

— وهل أجد من يعين على هذا ؟

اجاب هشام :

— نعم ، ابن زاد الركب ، والمطعم بن عدى ، وأنا ، معك
فطلب اليه أبو البختري أن يلتمس مؤيدا خامسا ، فذهب
الى زمعة بن الاسود بن المطلب بن أسد ، فكلمه في بنى هاشم
وذكر له قرابته منهم وحقهم عليه ، فأجاب زمعة

وتواعد الخمسة على اللقاء ليلا بخط الحجون - بأعلى مكة - وهنالك أجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام في أمر الصحيفة حتى ينقضوها ، واتفقوا كذلك على أن يبدأ زهير فيكون أول من يتكلم ، في مجتمع القوم فلما أصبحوا غدوا الى أنديتهم ، وغدا « زهير » عليه حلة فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس فقال :
- يا أهل مكة ، أناكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالة

قال أبو الحكم بن هشام ، وكان في ناحية المسجد :
- كذبت ، والله لا تشق !

فأجابه صوت « زمعة بن الأسود » :

- أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابها حيث كتبت !
وثنى أبو البختري :

- صدق زمعة ، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به
وأيدهما المطعم :

- صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرا الى الله منها
ومما كتب فيها

وتابعهم هشام بن عمرو مؤيدا ، فنقل أبو الحكم عينيه بين هؤلاء الرجال الخمسة ثم صاح مستريبا :

- هذا أمر قضى بليل ، تشوور فيه بغير هذا المكان

فلم يعرفه الرجال اهتماما ، وقام المطعم - بمرأى من القوم ، وفيهم أبو طالب قد انتحى ناحية من المسجد - والتمس الصحيفة ليشقها ، فاذا الارضة قد اكلتها فلم تدع منها الا : « باسمك اللهم » !

ووجمت قریش ، وأسقط في يديها وأحست بالسهم
الذي راشتہ يرتد الى صدرها فيمزقه

ونہض أبو طالب يسعى الى الشعب بالبشرى ، وقد ذكر
— وهو في طريقه من البيت العتيق — بنیه الذين هاجروا
الى الحبشة ، فهتف منشدا وهو يرجو ان يبلغهم هنالك
صدى من صوته :

ألا هل أتى بحرینا صنع ربنا
على نأيهم ، والله بالنساسة أروء

فيخبرهم ان الصحيفة مزقت
وأن كل مالم يرضه الله مفسد
تراوحها أفك وسحر مجمع

ولم يلف سحر آخر الدهر يصعد
جزى الله رهطا بالحجون تتابعوا

على ملاء ، يهدى لحزم ويرشد
قعودا لدى خطم الحجون كأنهم

مقناولة ، بل هم أعز وأمجد
قضوا ما قضوا في ليلهم ثم أصبحوا

على مهل ، وسائر الناس رقد
وايقظ صوته كل من في الشعب ، فهبوا من مضاجعهم
يهتفون للبشرى السعيدة ، وصاح المسلمون منهم : « الله
أكبر »

وباتوا ليلتهم وما تمس جنوبهم مضجعا ، لفرط الفرح
والانفعال

وأصبحوا ساعين الى الكعبة فطافوا بها ، ثم أبوا الى

بيوتهم في مكة ، ينتظرون ماذا يكون من قريش بعد أن
خاب كيدها وتهاوى الحصار



وفي بيت النبي بمكة ، رقدت السيدة خديجة في فراشها تنهياً
للقاء ربها بعد أن اطمأنت على زوجها الحبيب ، ثم ما لبثت
روحها أن فاضت ، والنبي الى جانبها يهون عليها سكرات
الموت ، ويبشرها بما أعد الله لها من نعيم
وبناتها الثلاث : زينب وأم كلثوم وفاطمة ، يحطن بفراشها
ويتزودن منها قبل الرحيل

وفي اليوم العاشر من رمضان سنة عشر من البعثة ، حملت
الى الحجون ، وهناك أضجعها زوجها الرسول بيديه في
حفرتها ، ثم ودعها وآب الى بيته محزوناً ، فضم اليه ابنتيه
أم كلثوم وفاطمة ، يواسيهما ويعينهما على المصاب الفادح
واحس من تلك اللحظة ان مكانه بمكة قد نبا به ، فلم يعد
له فيها بعد رحيل « خديجة » مقام !

لكن طيفاً منها ظل يلم به غادياً ورائحاً ، فيؤنس غربته
في وطنه ، حتى اذن الله له في الهجرة الى يثرب
وودع الرسول بناته ، ثم ذهب في ضحوة النهار الى
بيت الصديق أبي بكر فاستصحبه

وتلبث لحظة قبل ان يفصل عن مكة ، فأشرف من عليّة
هناك على مهد الصبا ومبعث النور ، ثم قال :
« والله انك لاحب ارض الله الى الله ، وانك لاحب ارض
الله الى ، ولولا ان أهلك أخرجوني ما فارتكتك »
ومضى في طريقه الى الغار يصحبه الصديق ، وترك ابنتيه

أم كلثوم وأختها فاطمة ، وحيدتين في البيت المهجور ، يكاد
يتلفهما الاسبى لولا رحمة الله



وتلكات الايام فى سيرها متباطئة مشحونة بالقلق واللهفة ،
ومضت الليالى حوالك ليلاء مثقلات بالسهد والشجن ،حتى
جاءت البشرى بوصول النبى سالما الى يثرب ، ثم مالبت
زيد بن حارثة أن اقبل ، ليصحب ام كلثوم وشقيقتها
الصفرى الى دار الهجرة



وامضت بنتا النبى يومهما الاخير بمكة مع اختهما زينب
زوجة ابنى العاص ، يذكرن الامس السعيد الذى ولى وراح
ثم اغلقن الدار التى شهدت ماضيهن الخلى ، وسعين الى
الحجون فروين قبر الام بدموعهن

وامسكت ام كلثوم بيد أختها الصفرى فاطمة ، ومضت
بها الى حيث كان « زيد » ينتظرهما متهيئا للرحيل
والقت نظرة وداع على مفانى مكة وما تدرى ا تكون اليها
عودة !

ثم اندمجت فى الركب المهاجر ، وقد خفف عنها مصاب
الفراق انها ذاهبة الى ابيها الرسول فى منزله الكريم بين
الانصار !



ومضى على الهجرة عامان حافلان بجليل الاحداث
وشهدت « أم كلثوم » عودة ابيها منتصرا من « بدر » ،

كما شهدت موت شقيقتها الغالية « رقية »
وأهل العام الثالث وما يزال الحزن على رقية جديدا ،
وما تزال قریش تبكى قتلاها وتتداعى للثأر من الفئة الظافرة
وكانت « أم كلثوم » تلمح «عثمان» في هذه الفترة ، وهو
يلازم أباهما ويلتمس لديه العزاء عن فقيدته الغالية
الى أن كان يوم من أيام شهر ربيع ، وقد أوى الرسول
الى بيته يستريح ، فاذا عمر بن الخطاب يسعى اليه مستشار
الغضب ليشكو اليه صاحبيه أبا بكر وعثمان
لقد عرض على أحدهما بعد الآخر ، أن يتزوج من بنته
« حفصة » بعد أن مات عنها زوجها حصن بن حذافة ،
فسكت أبو بكر ، وأجاب عثمان : ما أريد أن أتزوج اليوم
وسمعت « أم كلثوم » أباهما الرسول يقول لعمر ملاطفا :
- يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان
من هي خير من حفصة !!
وخفق قلبها لما سمعت !
فما من امرأة خير من بنت عمر غير بنت النبی ، فهل
تشغل مكان أختها « رقية » في بيت عثمان ؟
وعجبت لان أباهما لم يحدثها في هذا الامر من قبل ، وقد
عهده لا يزوج احدي بناته دون أن يعرف رأيها
وعادت بها الذكرى الى ماض بعيد ، يوم وقفت هي
واختها الراحلة «رقية» تصفيان الى أبيهما حين عرض عليهما
رغبة ابني أبي لهن في الزواج منهما
وقد عقد الزواج ، ثم واجهتا الاختان حظهما المشترك ،
الى أن طلقهما ابنا حمالة الحطب في وقت واحد
وتزوجت « رقية » بعد ذلك من عثمان ، فأى قدر

عجيب يجمع بين الاختين ، او كتب لام كلثوم ان تتزوج
هى الاخرى من زوج شقيقتها : عثمان بن عفان ؟!

وبينا هى تحلق - شبه نائمة - فى الخيوط الخفية
التى ينسجها القدر ليربط بينها وبين رقية أبدا ، دخلت
عليها « أم عياش » خادم النبى ، تدعوها للقاء أبيها صلى الله
عليه وسلم

وتم عقد زواجها من عثمان ، « على مثل صداق رقية ،
وعلى مثل صحبتها »

وخرجت الى بيت زوجها وعليها ثوب من حرير شبيه
بذاك الذى دخلت به رقية على عثمان
وبعث النبى معها « أم عياش » كما بعثها مع أختها من
قبل ..

فلما شارفت البيت الجديد ، أحست كأن طيفا من أختها
الراحلة ينتظرها لدى الباب ، ليصحبها هنالك فلا يفارقها فى
يقظة او منام
همست فى شجن :

« لم يبق يا رقيقة الا ان الحق بك حيث ترقدين ،
فيجمعنا الموت كما جمعتنا الحياة منذ كنا ! »



لكنها عاشت ست سنوات ، رأت فيها الاسلام يبلغ
أوج انتصاره ، وشاهدت أباهما البطل يخرج من معركة فى
اثر معركة ، مؤيدا مظفرا ...

حتى ماتت فى بيت عثمان ، فى شهر شعبان سنة تسع ،
عن غير ولد

ووسدوها ثرى « يشرب » الى جانب مابقى من رفاة اختها ،
ووقف النبى على قبر ابنتيه دامع العينين ، مثقل القلب
بألم الثكل المتتابع ...

ورحم الله « أم كلثوم » فأعفاها من محنتى اليتيم والترمل ،
فلم تشهد أباهما النبى بعد عام واحد يرحل عن الدنيا ،
ولا شهدت زوجها « عثمان » يلقى مصرعه الدامى بعد نحو
ربع قرن من الزمان ، على مرأى من زوجته الثالثة : أم
البنين !



فاطمة الزهراء

أحب البنات
في دوامة الأعصار
الهجرة
البيت الجديد
سحابة صيف
محنة ثقيلة
حلم هنئ
يقظة مروعة
التئام الشمل !
بدء تاريخ !

كانت رابعة البنات فى تلك البيئة التى عرفناها مفتونة
بالبنين ، لكنها مع ذلك دخلت التاريخ الاسلامى كما لم
يدخله أحد قط بعد أبيها النبى ، وتركت فيه من خطير الآثار
ما جاوز كل تصور واحتمال ، يوم استقبلها البيت المحمدى
وليده ، قبل المبعث بخمس سنوات

ولقد شاء الله أن يقترن مولدها بالحادث الجليل الذى
ارتضت فيه قريش « محمدا » حكما فيما اشتجر بينها من
خلاف على وضع الحجر الاسود ، بعد تجديد بناء الكعبة
المكرمة ، فاستبشر أبواها بمولدها واحتفلا بها احتفالا لم
تألفه « مكة » فى مولد أنثى سبقتها ثلاث أخوات ليس بينهن
ولد . وأمضت طفولتها سعيدة بحب أبويها وتدليل أخواتها ،
وبخاصة كبراهن « زينب » التى كانت لها بمثابة أم صغيرة
حتى تزوجت « زينب » من ابن خالتها أبى العاص بن
الربيع ، ومن بعدها تزوجت « رقية وأم كلثوم » من ابنى
أبى لهب ، فعز على فاطمة أن تفارقها أخواتها واحدة فى أثر أخرى ،
وأعيائها - فى طفولتها الباكورة - أن تدرك حكمة هذا الزواج
الذى يفصل بين البنت وأبويها ، وبين الاخت وأختها ،
وشغلتها هذه الحاطرة أياما وليالى ذات عدد ، حتى تركت
أثرا عميقا فى مشاعرها البكر وقلبها الغض ، وكان للظروف
التي طرأت على الاسرة حينذاك ، يد فى تقوية ذلك الاثر ،
فلقد شغل الاب بتأملاته التى انتزعته من دنيا الناس ومضت

به الى عزلة عابدة متأملة ، وشغلت الام بزواجها الحبيب تحنو عليه ما أقام معها وترسل قلبها فى أثره اذا غاب ، وشغلت الاخوات الثلاث بحياتهن الزوجية الجديدة، وتركت «فاطمة» شبه وحيدة مع خواطرها التى انفردت بها وراحت تؤثر فى وجدانها على مهل

وكانت بحيث تجد فى ابن العم ، على بن أبى طالب - ذاك الذى اختاره أبوها فضمه اليه واتخذته ولدا - أخا وصاحباً، فما كان يكبرها بأكثر من أربع سنين ، لولا أنها استجيت أن تفضى اليه بهمومها التى تدور حول الزواج ، ولو حاولت أن تفعل لما طاوعها لسانها

ثم كان الحادث الاجل الذى هز الجزيرة هزا ، فانتزع فاطمة من شواغلها الخاصة وأيقظتها فى عنف من أحلام طفولتها ، وألقى بها فى دوامة الاحداث الهائلة التى أعقبت المبعث

ووجدت نفسها - ولما تتجاوز الخامسة من عمرها - تواجه الصدمة العنيفة، وتقف فى مهب الاعصار المارد الذى أثارته الوثنية العتيقة فى وجه الدين الجديد

لكنها لم تأس قط على ما فاتها من مرح الصبا واهوال الحداثة ، ولا عز عليها أن تتخلى هكذا سريعا عما كانت تنعم به من راحة وخلو بال ، بل حلت تمائم صباها فى شجاعة ، وهجرت ملاعب أترابها ولداتها فى غير تردد ، واستقبلت الحياة الجديدة وهى تدرك على صغر السن ، معنى بنوتها للنبي الذى اصطفاه الله رسولا ، وتعى فداحة العبء الذى يجب عليها أن تحمله ، لتكون جديرة بمكانها من البطل

الهدى يلقى قريشا مجمعة ، أعزل إلا من إيمانه بالحق ، وحيداً
إلا من فئة قليلة مضطهدة

ولم تعد «فاطمة» تشعر بالوعدة التي كانت فيها قبل
المبعث ، فلقد ربطت الأسلام بينها وبين أبيها النبي ، ووالدتها
أم المؤمنين ، وأخواتها المسلمات ، برابطة أقوى من النسب
وأعلى من الدم وأقرب من الرحم ، ونسي كل فرد في البيت
المحمدي شوائبه الخاصة ، منذ تلاقوا جميعاً حول دين واحد ،
لا يدينون بغيره ، ورب أحد ، يجثون له سجداً ، لا يشركون
به لها آخر ولا يعبدون ربا سواه

وسمىها أن « علي بن أبي طالب » لم يتردد في الإيمان
بأبيها الرسول ، إذ كان بمثابة أخ لها عزيز ، ولا يهون
عليها أن يختلف بهما الدين فتحظى هي بشعمة الاسلام
دونه ، ويشرك هو مكانه في بيت سيد البشر ، ليلحق
بالعصبة الكافرة التي باءت بغضب من الله

وودت لو أسلم شيخ الهاشميين «أبو طالب» فانه لكما قال
أبوها الرسول : « وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة
ودعوته الى الهدى ، وأحق من أجابني اليه وأعانني عليه »
وودت لو أسلم شيخ الهاشميين «أبو طالب» فانه لكما قال
زوج شقيقته العزيزة زينب ، بل وودت لو أسلم بنو هاشم
جميعاً ، فهم آل أبيها وعشيرته الأقربون ، يعز عليه فراقهم ،
ويشقى عليه حربهم وعداوتهم ، لكن الله أراد أن يمتحن آل
النبي ويصهرهم في بوتقة الآلام ، وشاء تعالى - جلت
مشيئته - أن يضرب رسوله المصطفى المثل الأعلى في قوة
العقيدة وصدق الإيمان وجلال التضحية

كما أثر - سبحانه وتعالى - فاطمة بنت محمد بالحظ

الاولى من الالم العبرى ، فكتب لها ان تشهد الحرب المقدسة
وتصلى ناراها منذ طفولتها الباكرة ، وتعيش دون اخواتها
جميعا ، حتى يجود ابوها البطل بأنفاسه ، ويلحق بالرفيق
الاعلى

وكانت لذلك كله اهلا

وهذه هى ، قد هجرت ملاعب الصبا وانتبذت من
صواحبها مكانا قريبا من ابيها فى قلب الميدان ، وكان صفر
سنها يتيح لها ان تخرج من البيت وتتبع اباها اذ يسعى
كل يوم الى اندية قريش ومحافلها ليبشر بدعوته ، ويلقى
فى سبيلها ما يلقي من كيد الطفلة واذى السفهاء

كانت هناك ، قريبا منه ، يوم اقبل يمشى الى الكعبة حتى
استلم الركن ، فما لمحاه المشركون حتى وثبوا اليه وثبة
رجل واحد ، واحاطوا به يقولون : انت الذى تقول كذا
وكذا ؟ - وعدوا ما قال من شتم آبائهم وعيب آلهتهم
وتسفيه أحلامهم

فيقول الرسول : نعم ، انا الذى يقول ذلك

وامسكت « فاطمة » أنفاسها وهى ترى رجلا منهم
ياخذ بمجمع رداء ابيها ، وشل الذعر حركتها فوقفت حيث
هى ، وقام ابو بكر دون الرسول وهو يقول باكيا :
« اتقتلون رجلا ان يقول : ربى الله ؟! »

فالتفتوا اليه وشرر الغضب يتطاير من عيونهم ، فجذبوه
بلحيته ، ثم لم يدعوه الا وقد صدعوا راسه !

وغادر محمد - صلى الله عليه وسلم - البيت الحرام ،
ومشى فى الطريق ، وابنته تتبعه عن كسب ، فلم يلقه احد
من الناس ، لا حر ولا عبد ، الا كذبه وآذاه ، حتى بلغ بيته

٦ - بنات النبى

فتدثر في فراشه مقرورا ينتفض من شدة ما أصابه

وكانت هناك ، تقف غير بعيد من أبيها وتحوم بعينيها
وقلبها حوله ، اذ هو ساجد في الحرم ، وحوله ناس من
مشركي قريش ، فجاء « عقبة بن أبي معيط » بسلي جزور ،
فقدفه على ظهره ، فلم يرفع - صلى الله عليه وسلم -
رأسه حتى تقدمت ابنته فاطمة فأخذت السلي ودعت على
من صنع ذلك ، واذا ذاك رفع النبي رأسه وقال :

« اللهم عليك الملاء من قريش ! اللهم عليك ابا جهل بن
هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وعقبة بن أبي معيط
وابي بن خلف » - البخاري ١٤٤/٢

فخشع المشركون لدعائه ، وغضوا بأبصارهم حتى انتهى
من صلاته وانصرف الى بيته ، تصحبه ابنته فاطمة
ولو نظرت - رضى الله عنها - بظهر الغيب ، لرات هؤلاء
الملاء الذين دعت ودعا عليهم ابوها الرسول ، صرعى مجندين
حول ماء بدر ، بعد سنوات معدودات !

وكانت هناك ، يوم خرج ابوها النبي الى قريش وقد
نزل عليه قوله تعالى :

« وانذر عشيرتك الاقربين » فجعل ينادي :

« يا معشر قريش ، اشترؤا انفسكم لا اغنى عنكم من
الله شيئا

« يا بني عبد مناف ، لا اغنى عنكم من الله شيئا

« يا عباس بن عبد المطلب ، لا اغنى عنك من الله شيئا ،

ويا صفية بنت عبد المطلب ، لا اغنى عنك من الله شيئا

ويا فاطمة بنت محمد ، سليني ما شئت من مالي ، لا اغنى

عنك من الله شيئا »

وخفق قلب « فاطمة » حنانا وتأثرا ، فهمست تقول :
- لبيك يا أحب والد واكرم داع

ثم جمعت نفسها وسارت بين الناس بهيكلها الصغير اللطيف ، مرفوعة الهامة مشرقة الاسارير ، وكأنما ازدهاها ان يختارها ابوها النبي ، من بين اخواتها جميعا ، بل من بين اهل بيته الخاص ، ليؤكد للبشر انه لا يغنى عن الله شيئا عن اعز الناس عنده واحبهم اليه وادناهم منه

لقد بدأ بقریش قومه وقبيلته ، ثم بنى مناف عشيرته الاقربين ، ثم عمه العباس وعمته صفية ، ثم كانت ابنته فاطمة هي آخر من يتخذه الرسول مثلا في ذلك الموقف الجليل ، فعندها اذن ، ينتهى اقصى ما يبلغه صلى الله عليه وسلم في العظة والاعتبار ، واذا كان محمد لا يغنى عن بنته فاطمة من الله شيئا ، فهل يطمع غيرها - كائنا من كان في ان يغنى عنه أحد من الله شيئا !؟

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي يضرب النبي فيها المثل بابنته فاطمة تأكيدا لما يريد نشره في امته من الحق ، فلقد حدثوا ان امرأة من قریش سرقت بعد ان اسلمت ، وبلغ الرسول امرها فاشفقت قریش ان تقطع يدها ، فاستشفعوا لها عند الرسول حتى جاءوا اسامة ابن زيد ليشفع فيها وكان الرسول يشفعه ، فلما فعل ، قال صلى الله عليه وسلم :

« لا تكلمنى يا اسامة ، فان الحدود اذا انتهت الى فليس لها مترك ، ولو كانت بنت محمد فاطمة لقطعت يدها »
- الاصابة ١٦٠/٨

ولم يقل الرسول : « لو كانت بنت محمد » على الاطلاق

والتعميم ، بل ذكر « فاطمة » وهى من عرفت قریش
مكانتها الاثيرة عند ابيها الرسول ، ولقد سمع صلى الله
عليه وسلم يقول :

« خير نساء العالمين اربع : مريم وآسية وخديجة وفاطمة »
وسمع كذلك يقول لها : « ان الله ليرضى لرضالك ويغضب
لغضبك »

وعن ابن جريج : « قال لى غير واحد : كانت فاطمة
اصغر بنات النبى صلى الله عليه وسلم واحبهن اليه »
وهذه الرويات تلفتنا الى ما سبق ان اشرنا اليه من
موقف متعصبى المستشرقين فى اتهام ما يملأ كتب السيرة
والحديث من حب النبى لابنته فاطمة ، والزعم بانها مرويات
صنعت بأخرة بعد ما تطورت فكرة الشيعة تطورها السياسى
والدينى ذا الاثر البالغ فى التاريخ الاسلامى كله
وفى ذلك يقول « لامنس » :

« ان المؤرخين المسلمين تناسوا فاطمة فلم يحفلوا بها
اول الامر ، حتى اذا ظهرت فكرة التشيع فى الاسلام ،
عادوا يطيلون الحديث عنها ، واخذت شهرتها تذيع وتنتشر
على حين ظلت اخواتها وليس لهن ذكر ولا عنهن حديث »
ويرد احد الكتاب المسلمين - الاستاذ عمر أبو النصر -
على هذا الزعم قائلا :

« فاما عدم ذكر مؤرخى السيرة لفاطمة وغير فاطمة من
بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمردده ان مؤرخى
السيرة انما كانوا يؤرخون للنبوة والاسلام ، ولم تكن النبوة
والاسلام معلقين ببنات الرسول متصلين بهن ، خصوصا
وانهن لم يخضن حربا ولا اندفعن فى معركة ولا كان لهن

من الشأن في سياسة الرسول وشريعته ما يدفع المؤرخ الى ذكرهن والتبسط في تاريخهن . ومن البداهة والحالة هذه الا يذكر المؤرخون من اخبارهن الا ما كان له كبير شأن او عظيم اثر - ص ٦٠ من كتاب فاطمة بنت محمد »

وهو رد لا ينفي زعم « لامنس » ، بل لعله اقرب الى ان يقرره ويؤيده . وكان الاستاذ ابو النصر مرجوا عندنا لان يدحض الفرية بما في كتب السيرة والحديث عن فاطمة بصفة خاصة ، وهذا الذي جئنا ونجىء به من اخبارها في حياة ابيها النبي ومكانتها لديه ، لم تأت به من عندنا ، ولا نقلناه عن مصادر متأخرة قد تظن بها الظنون وتحمل على انها من مخترعات الشيعة او مختلقات الرواة ، بعد ان دخلت الزهراء في تاريخ الاسلام وشارك اسمها في سيره واتجاهه اعنف مشاركة ، كلا وانما كان مرجعنا الاول هو ابن اسحق شيخ كتاب السيرة ، والطبري عميد مؤرخي الاسلام المتقدمين وكتب الحديث الستة الامهات . ولا اذكر اني سقت هنا خبرا واحدا غير مأخوذ من هذه الاصول

وليس يغيب عنى ما قيل في حاجة هذه المراجع الى التحرير والتوثيق ، ولا انا بجاهلة ما حف بها من ظلال لم تسلم من مثلها الآثار النقلية قط ، لكنى هنا انما ارد على الزعم القائل بان المؤرخين المسلمين وكتاب السيرة ، تناسوا فاطمة كما تناسوا اخواتها ، ثم عادوا فآثروها باكبر العناية والاهتمام بعد ظهور التشيع

فهذه هي كتبهم بين يدي ، اقرأ فيها وانقل منها ما انقل من اخبار « الزهراء » ثم لا ارى بي حاجة الى رد الزعم الأحمق بأكثر مر هذا ، اللهم الا أن أعرض مثلا آخر من

تهافت هذه العصابة الحاقدة من المستشرقين ، حين مر بها حديث الحلية التى روى ان الرسول قال عنها : « لا هبنها احب اهللى الى » ثم دفعها الى حفيدته امامة بنت ابى العاص ابن الربيع . ولقد تلكأ غير واحد من المستشرقين عند هذا الحديث ، يريدون ان ينقضوا به كل ماتواترت به الاخبار من حب الرسول لابنته فاطمة ، واعشى الحق بصيرتهم فحملوا خبر الحلية محمل الثقة التى لا يرتفع اليها ظن ولا تجوز عليها ريبة ، وتلقوا اخبار « فاطمة » بالتكذيب والاتهام ، مع ان راويهما واحد !

ولو رشدوا ، لما راوا فى امر الحلية سوى مظهر من مظاهر عطفه صلى الله عليه وسلم على حفيدته الطفلة التى حرمت من امها زينب ، والفتة كريمة من لفتاته التى طالما اسعدت النساء من اهله وعشيرته ، وسنجدده صلى الله عليه وسلم فى موقف آخر ، يهدى حلة من استبرق ، فيقول لابن عمه على : « اجعلها خمرا بين الفواطم » فشققها « على » اربعة اخمرة ، احدها لفاطمة بنت محمد ، والثانى لفاطمة بنت اسد بن هاشم ، زوج ابى طالب وام بنيه على وجعفر وعقيل ، والثالث لفاطمة بنت الشهيد حمزة بن عبد المطلب ، والرابع لفاطمة بنت ابى طالب « ام هانئ » ، وفى رواية ، لفاطمة بنت شيبه بن ربيعة زوج عقيل بن ابى طالب



وندع هذا لنسأل : لم استأثرت السيدة فاطمة بهذه المكانة الخاصة عند ابيها صلى الله عليه وسلم ؟
وهو سؤال يعرض دائما لكل من يكتب عن الزهراء ،

اما متعصبو المستشرقين فاراحوا انفسهم كما رأينا بجواب سهل قريب ، هو ان ما روى عن حب محمد لفاطمة انما اخترعته الشيعة بعد وفاته - صلى الله عليه وسلم - بعشرات السنين وما هذا بمستغرب من المستشرقين فهكذا يلتوى تاريخ الاسلام في ايديهم ويصطبغ بصبغة من التعصب لا نلومهم عليها وهم بشر لا يراون - ولا نحن نبرا - من ضعف وهوى ، وان كنا في الوقت نفسه نأسف لما ضاع ويضيع على الانسانية من جهود هؤلاء العلماء الذين تقدر ما اتيح لهم من صبر على البحث ، ودأب في الدرس ، كانا جديرين بأن يؤتيا خير الثمر ، لو برئنا مما شابهما من شوائب هذا الضعف البشرى ، وهيهات ! واحسب انهم لو حاولوا كظم حقدهم ليواجهوا موضوع حب الرسول لابنته « فاطمة » ، لاستطاعوا ان يصلوا الى نتائج اعمق وابعد من هذه التى وصلوا اليها ارتجالا من اقرب الطرق ، وربما اتيح لهم ان يربطوا بين هذا الحب للابنة الرابعة ، وبين ما عرف عن العرب بخاصة من كراهة للاناث ، فهل كان الرسول فى حبه لفاطمة ، متأثرا بما كان يظن من عدم ترحيبه بمولدها بعد ان سبقتها اخوات ثلاث ؟ لست استبعد هذا ، فمحمد فى ابوته الرحيمه وانسانيته المهذبة ، اهل لان يغمر بحبه هذه الابنة التى شاء لها القدر ان تجيء حيث لا تلقى ترحابا ، واحق بان يحبوها مزيدا من عطفه حتى لا تحس - ولو على سبيل الوهم - انها غير مرغوب فيها . ونحن الامهات قد بلونا هذا الشعور الغامر بالحنان والرحمة ، حين تولد لنا بنت ثانية او ثالثة ، فكيف اذن يكون موقف الاب الكريم الذى اختير ليبعث

رسولا ؟ مثله بلا ريب من يذود عن طفله تلك الظلال الكثيرة
التي تحيط بمولد البنت الرابعة ، ويحميها من ذلك الاحساس
المر الاليم الذي قد يكسر قلبها ويعقد نفسيته
ولنا ان نقول بعد هذا ان تلك المكانة الخاصة لفاطمة
عند ابيها ، لم تنقص حبه لآخواتها الثلاث ، ولنا ان نقول
كذلك ان حظ مكانة الزهراء من حب ابيها صلى الله عليه
وسلم قد ازداد بعد موت هؤلاء الاخوات ، ثم تضاعف
بمولد الحسين ، وانحصار ذريته صلى الله عليه وسلم
في نسل هذه الابنة الوحيدة التي بقيت له !



دخلت « فاطمة » على امها السيدة خديجة ، تحدثها
— والدنيا لا تسعها من فرط فرحتها وزهوها — عما سمعت
من دعوة ابيها لقومه ان يشتروا أنفسهم ، فان احدا لن
يفنى عن احد من الله شيئا ، حتى فاطمة بنت محمد ، لن
يفنى عنها ابوها النبي شيئا اذا لم تؤمن

وهي قد آمنت بالله وصدق بنبيه ورسالته ، وباعت
دنياها بالآخرة ، وللآخرة خير وابقى

ومرت الام الطيبة بيدها الرقيقة على جبين ابنتها
الطفلة ، وغمغمت في رفق :

— ماذا ستلاقين من بعدى يا صغيرتى ؟ لقد نلت حظى
من الدنيا فانا هامة اليوم او غد ، واختاك زينب ورقية
قد اطمأن بهما مكانهما في كنف اكرم زوجين ، ولام كلثوم
من سنهما وتجربتهما ما يغرى بشيء من الطمأنينة عليهما ، واما
انت يا فاطمة ، فتستقبلين الحياة هكذا في مستهل الصبا ،

حافلة بالمتاعب منذرة بمزيد من المحن والالام
فردت فاطمة وهى تذكر اباها البطل :

— اطمئنى ، فلا بأس على يا اماه ، لتطغ قريش ماشاءت
لها وثنيته ان تطغى ، ولتمضين فى اضطهادها للفئة المسلمة
الى اقصى وافدح ما تستطيع ، فلقد طابت نفوسهم لاحتمال
هذا العذاب الجليل ، و « فاطمة » اجدر بان تحمل منه
ما يكافىء ما نعمت به من بنوتها للنبي ، واستثثارها بالحظ
الاوفى من محبته واعزازه



واستجاب الله لها ، فامتحن ايمانها بأقصى ما يمتحن به
مثلا ، فقد كان تعلقها بابيها يجعلها تتعذب لما يلقى من
فادح الاذى ، وتروع بالذى يكابده اتباعه من اضطهاد مريع ،
حتى لتكاد تحس بلسع الصخور الملهبة التى كانوا يلغون
عليها حين يحمر القيظ ، وتتحسس على بدننها اثر السياط
التى كانت قريش تلهب بها من تقدر عليه من المستضعفين
وصحبت ابويها الى شعب ابي طالب ، حيث عاشت
هنالك بين اسوار الحصار المنهك سنين عددا ، ثم عادت
الى مكة بعد انهيار الحصار ، لتشهد بعينها موت امها
خديجة ، ثم هجرة ابيها الى يثرب ، بعد ان لم يبق له فى
مكة مكان !

وعلى اثره هاجر «على» ابن العم ابي طالب ، وكان قد تمهل
ثلاثة ايام فى مكة ، ريثما ادى عن النبي المهاجر ، الودائع التى
كانت عنده للناس

وبقيت فاطمة واختها ام كلثوم ، حتى جاء رسول من
ابيها فصحبهما الى يثرب ، واغلقت دار محمد بمكة ، كما

اغلقت دور المسلمين فيها هجرة ، ليس فيها ساكن
ولم تمر رحلتها بسلام : فما كادت تودعان ام القرى
وينفصل بهما الركب مستقبلا طريق الشمال ، حتى طاردهما
اللائم من مشركى قريش ، وباء « الحويرث بن نقيذ بن عبد
ابن قصي » - وكان ممن يؤذى اباهما النبي بمكة - باثم
اللحاق بهما حتى نخس بهما فرمى بهما الى الارض

« السيرة ٥٢/٤ »

وكانت فاطمة يومئذ ، ضعيفة نحيلة الجسم ، قد انهكتها
الاحداث الجسام التي لقيتها قبل ان تمتلىء شبعاً ورياً ،
وترك الحصار المنهك اثره في صحتها وان زاد معنويتها
قوة على قوة ، فلما نخس بها « الحويرث القرشي » فرمى بها
واختها على اديم الصحراء الاوعث ، سارت بقية الطريق
متعبة ، الى ان بلغت « المدينة » وما تكاد ساقاها تنهضان بها ،
فلم يبق هناك من لم يلعن الحويرث ، وسوف تمر السنوات
وابوها الرسول لا ينسى الفعلة الآثمة ، بل سنراه في العام
الثامن للهجرة ، يذكر الحويرث يوم الفتح الاكبر ، ويسميه
مع نفر الذين عهد النبي الى امرائه ان يقتلوهم وان وجدوا
تحت استار الكعبة

وكان على بن ابي طالب احق هؤلاء الامراء بقتل الحويرث
وقد فعل !



كان الرسول قد شرع في بناء مسجده ومنزله ، حيث
بركت ناقته القصواء عند وصوله الى دار الهجرة ، ونزل
صلى الله عليه وسلم ريثما يتم البناء ، في دار ابي ايوب
الانصاري ، وهي الدار التي صارت من بعده الى مولاه

« افلح » فاشتراها منه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث
ابن هشام بألف دينار ، بعد ما خربت وتداعت جدرانها ،
فأصلحها وتصدق بها على بعض فقراء المدينة
وكان صلى الله عليه وسلم يشتغل في بناء مسجده وبنيته
الجديد ، مما أثار همة المهاجرين والانصار ، فأقبلوا
يتنافسون في العمل وقائلهم يقول :

لئن قعدنا والنبي يعمل

لذاك منا العمل المضل

فيجيبه المسلمون :

لا عيش الا عيش الآخـرـه

اللهم فارحم الانصار والمهاجرة !

ورؤى الرسول يومئذ وهو ينفذ بيده الكريمة وفرة

« عمار بن ياسر » وقد جاء مثقلا بما يحمل من اللبن

وسمع على بن ابي طالب ينشد مرتجزا :

لا يستوى من يعمر المساجدا

يداب فيه قائما وقاعدا

ومن يرى عن الغبار حائدا

فأخذها عنه « عمار » وجعل يرتجز بها حتى تم البناء

ولم يكن البيت الجديد للرسول قصرا فخما ولا صرحا

مشيدا ، بل كان حجرات بسيطة مطلة على فناء المسجد

النبوي ، بعضها من حجارة مرصوفة ، وبعضها من جريد

يمسكه الطين ، وكانت جميعا مسقوفة بالجريد

أما ارتفاعها فيقول الحسن بن علي ، حفيد الرسول :

كنت ادخل بيوت النبي صلى الله عليه وسلم وأنا غلام

مراهق ، فأنال السقف بيدي

وفى البخارى : ان بابه عليه الصلاة والسلام كان يقرع
بالاظافر ، يعنى : لا حلق له !

اما الاثاث فاقصى ما عرفت المدينة يومئذ بساطة وخشونة
وتواضعا : كان سريره صلى الله عليه وسلم ، خشبات
مشدودة بالليف ، بيع زمن بنى أمية ، بأربعة آلاف درهم
اما البيوت ، فلما توفيت زوجات النبى ، جاء كتاب عبد
الملك بن مروان الى واليه بالمدينة ، يأمره ان تخطط الحجرات
بالمسجد ، فضج أهل المدينة بالبكاء ، كيوم وفاته صلى
الله عليه وسلم



الى هذا المنزل الجديد المتواضع ، جاءت فاطمة بنت
محمد مهاجرة من مكة ، لترى أباه صلى الله عليه وسلم
فى أعز موضع ، ولتجد المهاجرين وقد اطمأن بهم المقام ، وآخى
الرسول بين الانصار وبينهم ، ليذهب عنهم وحشة
الاغتراب ، ويشد أزر بعضهم بعض

وتمت المؤاخاة قبل قدوم « فاطمة » من البلد العتيق ،
ولعلها لو كانت يشرب يومها ، لما استغربت ان ترى أباه
صلى الله عليه وسلم يقف فى أصحابه فيقول :

« تأخوا فى الله أخوين أخوين »

ثم يأخذ بيد على بن أبى طالب ويقول :

« هذا أخى »

ويختار لعمه حمزة زيد بن حارثة ، ولعمه جعفر - وكان
ما يزال غائبا بأرض الحبشة - معاذ بن جبل ، ولأبى بكر

الصديق ، خارجة بن زهير الخزرجي ، ولعمر بن الخطاب ،
عتبان بن مالك العوفي ، ولأبي عبيدة بن الجراح ، سعيد بن
معاذ ، ولعثمان بن عفان ، أوس بن ثابت أخا بني النجار ،
ولزبير بن العوام بن خويلد ، سلمة بن سلامة
وهكذا ذهب كل مهاجر بأخ ، وذهب على بن أبي طالب
بسيد البشر أخا !

ولن يمضى وقت طويل ، حتى نرى عليا ، صهرا لأخيه
النبي ، وزوجا لأحب بناته إليه



كانت « فاطمة » اذ ذاك قد قاربت عامها الثامن عشر ،
وما تزال منصرفة عن الزواج زاهدة فيه ، متأثرة بنفورها
القديم منه ، يوم انتزعوا اختها الحبيبة « زينب » من بيت
أبويها ، وزفوها الى دار أبي العاص بن الربيع ، وفاطمة طفلة
في عامها الرابع

ولقد مضت الاعوام ، ونمت الطفلة فأدركت مع الزمن
حكمة الزواج ، واعدتها فطرتها لان تستجيب لهذا الوضع
الطبيعى الذى بلته كل انثى قبلها ، من حواء ، الى خديجة
وزينب ورقية وأم كلثوم

وكانت الى ذلك كله ، تحس بابن العم ، على بن أبي طالب ،
قريبا منها فى المنزل الجديد ، وتلمحه يحوم حول أبيها
الرسول وفى نفسه امر يكتمه لا يريد أن يفصح عنه ، وعلى
لسانه كلمات يمسكها قبل أن تمس شفثيه ، على أن
« فاطمة » لم تكن بالتى يخفى عليها سر ابن العم ، فمئذ
بلغت سن الزواج وهى تحس بالهام فطرتها ووحى قلبها ،

ان « عليا » متعلق بها غير منصرف عنها ولا راغب في سواها
من بنات المسلمين

وكذلك هي : لم تشعر في عالمها النفسى بمن هو اقرب
اليها من «على» واعز موصفا ، وهو بعد اكثر من اخ عزيز
وابن عم قريب ، فليس بين فتية قريش من يفوقه شجاعة
وذكاء وعزيمة ، ولا بين المسلمين جميعا من هو اسبق منه
الى الاسلام او اقرب الى رسول الله

ولكنها مع ذلك أغلقت قلبها دونه كما أغلقت دون الرجال
جميعا ، مؤثرة مكانها الى جانب ابيها الحبيب ، متشبثة
بموضعها في بيته الكريم ، فمنذ ماتت أمها « السيدة
خديجة » - رضى الله عنها - وهى ترى نفسها ربة هذا
البيت التى تحمل عبء ادارته ، وخليفة الام الراحلة في
الوقوف الى جانب البطل المجاهد ، تهيب له راحة ومسكنا ،
وقد بلغت في ذلك المجال ما جعلها تظفر بأجل كنية ، فتدعى
« ام ابيها » !

وما كانت لتعدل بموضعها ذاك الاعز موصفا سواه !
لكن الى متى ؟

هذا ما لم تفكر فيه فاطمة بنت محمد ، او لعلها فكرت
فيه حينما ثم انصرفت عنه ، كيلا تفسد حاضرها بما يحتمل
أن يأتى به الغد المجهول !



حتى دخلت « عائشة بنت أبى بكر » في حياة محمد
- صلى الله عليه وسلم - زوجة وربة بيت ، فأحست
« الزهراء » أن قد آن لها أن تنتقل من بيت ابيها راضية

او كارهة ، لكى تخلقى المكان لربته الشابة الذكية الحسناء !
ولا ارتاب فى أن الزهراء رضى الله عنها قد ذكرت أمها
الراحلة طويلا ليلة زفت « عائشة » الى محمد ، بعد الهجرة
بأشهر معدودات ، واخذت مكان خديجة فى داره وديناه ،
ولعل الزهراء بكتها احر بكاء فى ليلتها تلك ، ثم هون عليها
الامر ان يجد أبوها - الذى تؤثره على نفسها - فى عروسه
الخلوة ما يؤنس وحشته بعد رحيل خديجة ، وما يسرى
عن فؤاده بعض الشجن الذى أثقله زمنا طال حتى أوشك
أن يبلغ خمسة اعوام



وزواج « أبى الزهراء » من عائشة لم يكن مفاجأة لابنته
ولا لاحد من قومه ، فهو صلى الله عليه وسلم قد خطبها
قبل هجرته من مكة ، يوم سعت اليه « خولة بنت حكيم »
متلطفة مترفقة تقول :
« يا رسول الله ، كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد
خديجة ! »

ثم ما زالت به حتى أذن لها أن تمضى فتخطب له سودة
بنت زمعة ، وعائشة بنت أبى بكر

وما كانت الزهراء لتكره ان يجد أبوها النبى من تسكن
اليها نفسه ويرتاح لها فؤاده ، وانها لتعرف ما يحمل من
أعباء الرسالة ومشاق الجهاد ، وما يكابده من محنة الغربة
عن الوطن ، ومأساة الاضطهاد من قومه وعشيرته

وقد جاءت « سودة » قبل عائشة ، فشعرت فاطمة
- كما لم يشعر سواها - ان الفراغ فى حياة النبى كزوج ،
ما يزال كما كان قبل أن تجيء بنت زمعة ، فان الرسول لم

يتزوجها الا جبرا لخاظرها وعزاء لها عن زوجها « السكران ابن عمرو » الذى لم يكد يعود بها من مهجرهما فى الحبشة حتى مات وتركها أرملة مسنة ، قد هدت المحن حيلها ، وطحنتها السنون الطوال العجاف

ولم يغب عن فاطمة ، ولا غاب عن سودة ، ان حظ هذه الزوجة من الرسول بر ورحمة ، لا حب وتآلف وامتزاج ، فلا عجب ان بقيت الزهراء « أم أبيها » فى مكانها الأول ، دون ان تشعر بأن وجود «سودة» يغنى عنها
اما حين جاءت « عائشة » فالامر جد مختلف !

فلا عجب ان لم يمض على دخولها بيت زوجها النبى أربعة أشهر ، حتى كانت « الزهراء » فى طريقها الى بيت على بن أبى طالب (الاصابة ١٥٧/٨)



والواقع ان « عليا » كان يتلبث حتى تحين فرصة مواتية كهذه ، يستطيع فيها ان يطمع فى قبول الزهراء الانتقال من بيت أبيها الى بيت الزوجية

وطال انتظاره سنين عددا ، حتى اذا دخل الرسول بعائشة الحبيبة ، خامره الرجاء فى تحقيق رغبته ، لكنه ظل محجما فترة ، لا يدرى بم يمهريها وليس فى يده مال . ثم زاد احجامه ، حين بلغه أن أبا بكر وعمر - رضى الله عنهما - قد طلبا يد الزهراء ، فردهما أبوها صلى الله عليه وسلم فى رفق بالغ

وعرف خاصة اصحاب «على» بما يهمة ، فشجعوه على خطبة الزهراء ، وذكروا له قرابته من أبيها ، ومكانته عنده

قال «على» منكرا يائسا :

« بعد أبى بكر وعمر ؟ »

أجابوه :

« ولم لا ؟ ووالله ما بين المسلمين - وفيهم أبو بكر وعمر -
من له مثل قرابتك من رسول الله ، وقد كفله أبوك ، ورعته
أمك في بر نادر ، ثم نشأت في كنفه وربيت في بيته ، وكنت
أسبق رجل الى الاسلام به »

وتشجع على ، واخذ طريقه الى ابن عمه ، حتى اذا جاءه
حياه بتحية الاسلام ، ثم جلس قريبا منه على استحياء ،
لا يذكر حاجته

وادرک صلى الله عليه وسلم ان اخاه وابن عمه وصاحبه،
جاء لامر لا يقوى على الافصاح عنه ، فأقبل عليه يسأله
في تلطف :

- ما حاجة ابن أبى طالب ؟

أجاب بصوت خفيض ، وهو يفيض من بصره :

- ذكرت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال الرسول وما يزال على بشره وتلطفه :

- مرحبا واهلا !

ثم امسك لا يزيد ...

وطال صمته ، فانصرف « على » حائرا قلقا ، لا يدري
بم يجيب اهله واصدقاءه الذين كانوا في انتظاره ، يترقبون
عودته برأى الرسول

فلما الحوا عليه ، قال :

- ما أدري والله شيئا : تحدثت الى رسول الله بالامر ،

فما زاد على قوله لى : مرحبا وأهلا !
هتفوا جميعا :
- يكفيك من رسول الله أحدهما !
ثم تركوه مستجداً الأمل ، حى الرجاء !



وأقبل فى غد فوقف غير بعيد من الرسول ، وقال بحيث
يسمعه عليه الصلاة والسلام :
« أردت أن أخطب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
ابنته ، فقلت : والله مالى من شىء ، ثم ذكرت صلته وعائده
فخطبتها إليه »

فما راعه الا أن التفت اليه أبو الزهراء وسأله مترفقا :
- وهل عندك شىء ؟
أجاب على :
- لا ، يا رسول الله
لكن الرسول ذكر أن « عليا » أصاب درعا من مغام
بدر ، فعاد يسأله :

- فأين درعك التى أعطيتك يوم كذا ؟
أجاب وقد غلبه التأثر لما يلقى من بر النبى ورعايته :
- هى عندى يا رسول الله
قال عليه الصلاة والسلام :
- فأعطها إياها

فانطلق « على » مسرعا ، وجاء بالدرع ، فأمره النبى أن
يبيعها ليجوز العروس بثمنها
وتقدم « عثمان بن عفان » فاشترى الدرع بأربعمائة

وسبعين درهما ، حملها « على » ووضعها امام الرسول ،
فتناولها بيده الكريمة ثم دفعها الى « بلال » ليشتري
«بعضها طيبا وعطرا ، ثم يدفع الباقي الى « أم سلمة »
لتشتري جهاز العروس

ودعا الرسول صحابته فأشهدهم انه زوج ابنته فاطمة
من على بن أبى طالب ، على أربعمائة مثقال من فضة ، على
السنة القائمة والفريضة الواجبة ، وختم خطبة الزواج
بمباركة العروسين الهاشميين ، والدعاء لهما بالذرية الصالحة
ثم قدم الى الضيوف وعاء تمر



وعلى هذا النحو من البساطة ، تمت خطبة الزهراء بنت
النبي للامام على ، وعقدت أخطر مصاهرة عرفها الاسلام
في تاريخه الحافل الطويل

وتم عقد النكاح في شهر رجب من السنة الاولى للهجرة،
فلما اهل المحرم من السنة الثانية ، كان « على » قد وفق
الى استئجار منزل خاص يستقبل فيه عروسه الزهراء

، واحتفل بنو عبد المطلب بهذا الزواج كما لم يحتفلوا
بزواج مثله من قبل ، وجاء حمزة - عم محمد وعلى -
بشارفين فنحرهما واطعم الناس بمدينة الرسول

فلما تم الحفل انصرف القوم مهثئين ، ودعا الرسول « أم
سلمة » فطلب اليها ان تمضي بالعروس الى بيت على ،
وليمنتظراه هناك

واذن « بلال » لصلاة العشاء ، فصلى النبي بالمسلمين

في المسجد ، ثم مشى الى دار على ، حيث دعا بماء فقرا عليه بعض آي الذكر الحكيم ، ثم امر العروسين أن يشربا منه ، وتوضأ بالباقي ونثره على راسيهما ، وهم بعد ذلك بالانصراف وهو يقول :

— اللهم بارك فيهما ، وبارك عليهما ، وبارك لهما في نسلهما !

فلم تملك فاطمة دمعها ، فتمهل الأب برهة ، وحنا عليها مهونا عليها الامر بأنه انما تركها وديعة عند اقوى الناس ايمانا واكثرهم علما وافضلهم اخلاقا واعلاهم نفسا ...
اثم انصرف وطيف من « خديجة » يطيف بالعروس في ليلتها الاولى ، ويحوم حولها ، ويسرى عنها بعض ما تجد من وحشة لفراق الأب ، وشجن لغياب الأم
واستجاب الله لدعاء نبيه في تلك المناسبة السعيدة ، فكانت الزوجية المباركة التي شاء الاله أن تنحصر في ثمرها ذرية نبيه المصطفى



كانت سن « الزهراء » عندما تزوجت ثمانية عشر عاما ، ولكن الهوى جمع بالمستشرق «لامانس» فخیل اليه انها كانت اسن من ذلك بكثير ، وانما عمد بعض كتاب السيرة الى تأخير ميلادها ، كيلا يقال انها ظلت مزهودا فيها مرغوبا عنها الى ان فانت سن الشباب

ولعلنا لو سألناه : فلم لم يفعل كتاب السيرة مثل هذا مع خديجة وعائشة ؟ لم لم يجعلوا الاولى اصغر سنا ويضيفوا الى الاخرى عشر سنين او عشرين ، ليلاثموا

بينهما وبين زوجهما النبي في السن ؟ أقول : لعلنا لو سألنا
« لامانس » مثل هذا السؤال لما حار جوابا ..

ولامانس - فيما أرجح - قد اعتمد في ذلك على خلاف
يسير الشأن في تاريخ مولد الزهراء ، فاستغله الى أبعد حد
في ارضاء حقه ، وبدلا من أن يزن الروايات المختلفة ويعرضها
على مقاييس النقد والتقويم ، نراه يضع اصبعه على قول
نقله « المسعودي » بولادة الزهراء قبل الهجرة بثمانية أعوام
فحسب ، وآخر ذكره « اليعقوبي » بأنها ولدت بعد نزول
الوحي . يضع لامانس اصبعه على هذا القول أو ذاك ، ثم
يصوب الطعنة المسمومة ، متجاهلا اقوال الكثرة من الثقة
الذين عليهم المعتمد في هذا الشأن ، كابن اسحاق وابن
هشام والطبري ، وهم يكادون يجمعون على أن مولدها قد
كان قبل البعثة بخمس سنين

والخلاف - كما قلت آنفا - يسير الشأن ، لاننا تعودنا أن
نلقى مثله وأكثر منه في تاريخنا النقلي ، وبخاصة ذلك الذي
يعتمد على المروى شفاها قبل عصر التدوين ، حيث لا تكاد
تخلو ترجمة شخص من خلاف كهذا ، وبخاصة في سنة
مولده ، اذ المؤلف الا تتجه العناية الى ترجمة شخص الا
بعد أن ينمو وتظهر شخصيته ويبدو أنه جدير بالعناية ،
وكان للمستشرق أن يأخذ من هذه الظاهرة العامة ماشاء ،
لا أن يتمسك بجزئية بعينها ، ثم يخصصها بالتجريح والطعن
وسوء التأويل

وما أظن لامانس بالذي يغيب عنه الموقف المنهجي حين يختلف
الرواة ، لكنه تجاهل عامدا « ابن اسحاق » وهو مرجعنا
الاول في السيرة لانه اقرب كتابها عهدا بالرسول وبناته ،

وابن اسحاق لم يذكر في مولد « فاطمة » غير قول واحد اقتصر عليه ، وهو السنة الخامسة قبل البعثة ، ثم أيده بحكم عام هو ان بنات محمد ولدن جميعا قبل ان يبعث صلى الله عليه وسلم ، وهذا القول اغفله لامانس كما اغفل من بعده اقوال الائمة من رجال الحديث والثقة من المؤرخين ، ليطمسك برواية المسعودي - ثم اليعقوبى من بعده - حتى اذا استغلها ما شاء له التعصب والهوى ، واتكأ عليها في الزعم بأن كتاب السيرة اخروا مولد فاطمة لكي ينفوا عنها تهمة البوار ، عاد فناقض نفسه وأبطل الرواية المرجوحة التى اختارها ، بنقد طبيعى للمتن ، اذ يقضى القول بولادة فاطمة بعد البعثة ، أن تكون امها ولدتها وهى فى نحو الستين من عمرها !

الى ذلك الحد ، بلغ بمتعصبى المستشرقين التواء الأسلوب وانحراف المنهج واغتصاب الدليل ، وكانوا فى غنى عن هذا كله ، ليصلوا الى ما شاءوا من تقريره من تأخر زواج فاطمة ، مستندين الى قول ابن اسحاق نفسه ، فسن الثامنة عشرة جد متأخرة اذا قيست بسن اخواتها الثلاث حين تزوجن ، وهى أبعد تأخرا اذا قيست بسن أم المؤمنين « عائشة » بنت أبى بكر ، لكن معاذ الحق أن يكون هذا التأخر عن زهد فيها ورغبة عنها ، فهى بنت الامين والطاهرة ، وهى أخت زينب ورقية وأم كلثوم اللواتى تنافس شبان قريش على الزواج منهن ولما يزلن فى مستهل الصبا ، وكانت بعد هذا كله ، أقرب الناس شبيها بأبيها فى الخلقة ، وهو من هو بهاء طلعة وجمال صورة ، وانما عرف القوم زهد الزهراء فى الزواج ، وتشبثها بمكانها الى جانب أبيها الرسول ، وقدروا

موضعها من البيت المحمدي وحاجته اليها بعد وفاة أمها
رضي الله عنها

ثم ، لم لا نقول - اذا لم يكف كل ما قدمنا - ان تأخر
زواجها كان عن تهيب لها ؟ لقد بعث أبوها صلى الله عليه
وسلم ، وهي وحدها التي لم تتزوج ، اذ كان عمرها خمس
سنوات ، والناس بعد المبعث أحد رجلين : اما كافر بنبوة
محمد وهيئات ان يفكر في مصاهرته ، وقد علمنا ما كان
من سعى قريش الى أصهار محمد في رد بناته الثلاث
اليه كي يشغلوه بهن ، واما مسلم يؤمن بنبوة محمد
ويصدق برسالته ، وقد عرفنا موقف المسلمين من نبهم
والى اى مدى كانوا يجلونه ويعظمونه ويفتقدونه بالمهج
والارواح ، فغير مستغرب الا يروا انفسهم كفئا لمصاهرته ،
وان يغضوا الطرف عن « أم أبيها ، الزهراء » اجلالا وتهيبا
ولا يرد على هذا بأن « عثمان » رأى في نفسه كفئا لرقية ،
فلقد قل في أصحاب الرسول - بل في قريش بعامة - مثل
عثمان ثراء وشرفا وجاها ، وهو بعد قد طمع في الزواج
من بنت النبی ، بعد أن طلقها ابن ابي لهب كيدا وحقدا ،
وليس الامر كذلك مع الزهراء

ونحن - حتى يومنا هذا - نرى بنات الاسر الكريمة
يتأخر زواجهن في انتظار الاكفاء وهم عادة القلة ، اذ القاعدة
المضطردة هي أنه كلما تميزت الفتاة لعلمها او ثرائها او
عزتها ، قل اكفاؤها

ولم يكن « على » مع ذاك اول من طمع في الزواج من
« فاطمة » بعد تهيب وتردد ، فقد تسامى الى ذلك الشرف
قبله ، صاحب الرسول أبو بكر وعمر ، على ما روى « البلاذري »

في « أنساب الأشراف » ، فردهما أبوها ردا كريما
ويأبى لأمس بعد ذلك كله إلا أن يعلل الزهد المزعوم في
« الزهراء » بأنها كانت محرومة من الجمال والذكاء والمرح (!!)
ولست أطيل الوقوف عند هذا الزعم الاحمق ، بعد أن
تهاوى كلام صاحبه وصار الى هباء



لم تكن حياة « الزهراء » في بيت زوجها مترفة ولانعمة ،
بل كانت اقرب الى أن توصف بالخشونة والفقر ، وهي
في ذلك تختلف عن حياة أخواتها اللواتي أتيح لهن حظ غير
قليل من الشراء المادي ، فقد تزوجت « زينب » من أبي
العاص وهو معدود من أثرياء مكة ، وتزوجت رقية وأم كلثوم
أولا من ابني أبي لهب ذي المال الوافر ، ثم تزوجتا واحدة
بعد الأخرى من « عثمان بن عفان » الواسع الغنى ، أما
« علي بن أبي طالب » فلم يك ذا حظ من مال مكتسب أو
موروث ، إذ كان أبوه علي عظم مكانته وعلو شرفه ، قليل
المال كثير العيال ، مما دفع ابن أخيه محمدا الى أن يقترح
على عمه « العباس » التخفيف من أعباء أبي طالب ، بأن
ياخذ كل منهما أحد بنيه فيكفله عنه . وكان من نصيب
« علي » أن يختاره « محمد » دون بقية أبناء العم .

وبعث « محمد » صلى الله عليه وسلم رسولا ، فكان
« علي » أول من آمن به صبيا ، إذ كان عمره عشر سنوات
على ما نقل ابن اسحق في « السيرة ١/٦٢ » وهكذا اشترك
« علي » في الحرب المقدسة بمجرد أن شب عن الطوق ، وشغل
بالجهاد عن جمع المال ، وصرفته صحبة الرسول وهويواجه

المشركين ، عما كان يرجى أن يشتغل به من التجارة التي هي حرفة الرجال من قريش ، وصناعة الإشراف في مكة ، وسبيل الثراء بالوادي الأجرد غير ذي الزرع ، فلاعجب أن رأيناه يطلب يد « الزهراء » وليس في يده مايمهرها به سوى درع أفاءها الله عليه من مفاتم « بدر » التي أبلى فيها « على » خير البلاء ، حتى لقد أحصى ابن اسحاق ، الذين انفرد « على » بقتلهم يومئذ أو شارك فيه ، بواحد وعشرين رجلا « السيرة ٢/٣٧٢ »

ولم يغب شيء من ذلك عن فاطمة حين عرض عليها أبوها صلى الله عليه وسلم طلب « على » يدها ، ولو صحت الرواية التي انفرد « البلاذري » - فيما أعلم - بذكرها ، وهي أن الزهراء ذكرت فقر خطيبها ، فرد أبوها يزيه : « انه سيد في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين » وانه

أكثر الصحابة علما وفضلهم حلما وأولهم اسلاما » أقول لو صحت هذه الرواية ، لكانت مما يقال عادة في مثل هذا الموقف ، لكن « لامنس » لم يدعها تمر دون أن يغمز ويلمز ، ليغض من شأن الامام كرم الله وجهه ، حتى اذا أحس أن الفقر لايمكن أن يعاب على الامام ، وقد نشأ النبي نفسه يتيما فقيرا ، راح يتخبط ليلتمس مغمزا آخر ، واخذ يبدى ويعيد عن ضالة حظ « على » من جمال الصورة وحسن الشكل ! ولو راجع نفسه فسألها : كيف يستقيم مزعمه في أن شخصية فاطمة رسمت باخرة ، وأضيفت اليها ألوان زاهية من صنع التشيع ، وهذا الذي ينقله من روايات عن الامام على ؟ لاستوقفه هنا أن مؤرخي الاسلام لم يضيفوا الى امام الشيعة من الثراء والجمال مايرفع قدره

عند أمثال لامنس ، بل انهم - بشهادته - قد ذكروا انه كرم الله وجهه « كان فقيرا معدما قصيرا افطس الانف دقيق الذراعين » دون ان يجدوا في ذلك مايفض من شأنه ، او ينقص مقداره حين يوزن بموازين الرجال ويقدر بمقاييس الابطال !



ونرجع الى حيث تركنا « الزهراء » تستقبل في عامها الثامن عشر حياتها الجديدة ، فلا نرى احدا من رواة المسلمين حاول ان ينفي عنها ماكانت تجده من شظف العيش ، او يجيء في جهازها بسرير وثير واثاث جميل ، بل نقرأ انها دخلت بيت زوجها بخميلة ، ووسادة حشوها ليف ، ورحاءين وسقاءين ، وشيء من العطر والطيب

وكان زوجها من الفقر بحيث لم يستطع يستأجر لها خادما تعينها او تقوم عنها بالعمل الشاق ، فكان عليها - رضى الله عنها - ان تنفرد بهذا العبء الثقيل ، لكن « عليا » لم يكن يهون عليه ان يراها هكذا كادحة مجهدة ، فحاول ان يساعدها في بعض أعمال البيت مامكنته ظروفه من ذلك ، اذ كان يخشى ان يستنفد العبء مابقى لها من قوة جسدية ، بعد الذي كابدته - منذ عامها الخامس - من محنة الحصار ومشقة الهجرة ومتاعب الجهاد

حتى ناء كلاهما بما يحمل ، فانتهاز كرم الله وجهه فرصة مواتية ، وقال لها ذات يوم وقد عرف ان أباهما النبي عاد من احدى غزواته الظافرة بغنائم وسبايا :

- لقد شقوت يافاط بيت صدرى ، وقد جاء

الله بسبى ، فاذهبى فالتمسى واحدة تخدمك
اجابته وهى تنحى الرحى جانباً فى تعب وكلال : افعل
ان شاء الله

ثم ابثت ساعة حيث هى فى ساحة الدار ريثما استردت
بعض قواها الذاهبة ، وقامت فتلفعت بخمارها وخرجت
تسعى الى بيت ابيها بخطوات بطيئة وائية ، فلما رآها
صلى الله عليه وسلم هشى لها وسأل :
- ماجاء بك يابنية ؟
اجابت :

- جئت لاسلم عليك !...
ومنعها الحياء أن تسأله فيما جاءت من أجله
ثم عادت من حيث أتت ، لتنبئ زوجها انها استتحت
ان تطلب من ابيها شيئاً
فقام كرم الله وجهه وصحبها الى الرسول ، وتولى عنها
السؤال وهى مطرقة من استحياء
اجاب صلى الله عليه وسلم :
- لا والله ، لا اعطيكما وادع اهل الصفة تتلوى بطونهم
لاجد ماأنفق عليهم ، ولكن أبيع ، وأنفق عليهم بالثمن
فانصرفا شاكرين ، وما يدريان أن شكواهما مست قلب
الاب الحنون ، وشغلته نهاره كله !

وجن الليل وكان البرد قارساً ثقیل الوطأة ، فرقدا على
فراشهما الخشن يحاولان النوم فلا يجدان اليه سبيلاً
لفرط مايشعران به من قسوة البرد ، فاذا بالباب يفتح ،
« ويقبل عليهما الرسول وقد انكمشا فى غطاءهما مقرورين ،
اذا غطيا راسيهما بدت اقدامهما ، واذا غطيا اقدامهما

انكشفت رءوسهما « . فهبا للقاء الضيف الكريم ، لكنه صلى
الله عليه وسلم ابتدرهما قائلا :
- مكانكما !... .

ثم اضاف فى رفق وهو يقدر حالهما :
- الا اخبركما بخير مما سألتمانى ؟
اجابا معا :

- بلى يا رسول الله
قال :

- كلمات علمنيهن جبريل : تسبحان الله فى دبر كل
صلاة عشرا ، وتحمدان عشرا ، وتكبران عشرا ، واذا أويتما
الى فراشكما ، تسبحان ثلاثا وثلاثين ، وتحمدان ثلاثا وثلاثين ،
وتكبران ثلاثا وثلاثين

ثم ودعهما ومضى ، بعد أن زودهما بهذا المدد الإلهى ،
ولقنهما هذه الرياضة النفسية التى تغلب المصاعب وتهزم
المتاعب

ولقد سمع « الامام على » بعد اكثر من ثلث قرن يذكر كلمات
الرسول ويقول :

« فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن ! »

سأله رجل من أصحابه :

« ولا ليلة صفين ؟ »

فأجاب مؤكدا :

« ولا ليلة صفين ! »



وتابى سنة الله التى فطر الناس عليها ، ألا تؤثر هذه

الحياة الشاقة الكادحة على صحة « الزهراء » ومزاجها ،
وقد كان وجودها رضى الله عنها منذ طفولتها في صميم
المعركة ، يميل بها عن المرح والابتهاج ، ثم أحزنها موت أمها
أشد الحزن ، وزادها وحشة وشجنا ، وكانت الى جانب
ذلك كله مشغولة البال بأبيها النبی ، تفكر فيه على البعد
والقرب ، وتتبعه قلبها في غزواته ومعاركه ، وقد تأذن لها
الظروف بمصاحبته الى ميدان القتال ، كما حدث في موقعة
« أحد » اذ رؤيت هنالك تضمد الجراح وتأسو الكلوم وتسقى
المحتضرين من الشهداء

ولست هذه الظروف مجتمعة ، مما يعين على بهجة
وانشراح ، ولعل الزهراء حاولت أن تتأسى بغيرها من نساء
البيت النبوى ، وهى ترى مثلاً ، أم المؤمنين عائشة ، تضى
على بيت زوجها اشراقاً وتبث فيه حيوية وانسا ، وتلقى
البطل اذ يعود الى سكنه ، بابتسامتها الوضاعة ودعابتها
اللطيفة ومرحها الحلو

وربما حاولت الزهراء كذلك ، أن تنحى عن بيتها الخاص
ظلال الكآبة التى كانت تغشاه لفرط نزوعها الى ذكرى أمها ،
ومزيد قلقها على أبيها وزوجها ، وعمق تأثرها بما لقيت
ولقى أهلها والمسلمون من محن واضطهاد ، لكنما أعوزها -
لكى تنجح فى محاولتها هذه - أن تجد الى جانبها زوجاً
لطيفاً وديعاً هيناً لينا مرناً ، و « على » كرم الله وجهه لم يكن
من هذا الصنف من الأزواج ، بل كانت فيه شدة اقرب الى
أن تكون صرامة ، وخشونة توشك أن تشتبه بالغلظة ، وحزماً
يكاد يكون صلابة ، واذا كانت رضى الله عنها فى حاجة الى
يد حانية رقيقة ، تأسو جرحها وتنسيها ما لقيت فى مستهل

صباها من متاعب وصدمات ، وتلطف أشجانها لفراق بيتها
الاول الحبيب ، فقد كان « على » كرم الله وجهه لا يقل عنها
حاجة الى هذه اليد اللطيفة الرحيمة التي تنفض عنه غبار
المعارك التي خاضها منذ كان صبيا

فليس يروعنا اذن ، ماتحدث به الرواة من خلاف كان
يقع أحيانا بين الزوجين ، وقد يبلغ أحيانا سمع الاب الرسول
فيهتم له ويحاول جهده أن يغريهما بمزيد من الاحتمال
حدثوا أنه صلى الله عليه وسلم ، رؤى ذات مساء وهو
يسعى الى دار ابنته فاطمة ، بادي الهم والقلق ، فأمضى
وقتا هناك ثم خرج ووجهه الكريم يفيض بشرا ، فقال قائل
من الصحابة : يا رسول الله ، دخلت وأنت على حال وخرجت
ونحن نرى البشر في وجهك !

فأجاب عليه الصلاة والسلام :

— وما يمنعني وقد أصلحت بين أحب اثنين الى ؟
وحدث مرة أن ضاقت « الزهراء » بما تجد من شدة
زوجها وصلابته ، فقالت له :

« والله لاشكونك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم »
وخرجت ، و « على » في اثرها ، حتى جاءت أباه فشكت
اليه ما أنكرت من زوجها ، فتلطف الاب النبيل في ترضيتها
وحملها على الرفق بعلى واحتماله

قال كرم الله وجهه وهو يصحب زوجته الى بيتها :

— والله لا آتى شيئا تكرهينه أبدا !



لكنه كاد يأتي — غير متعمد — شيئا تكرهه فاطمة أشد
الكره ، وتألم منه أفدح الألم

وأى شيء أبغض الى زوجة كالزهراء ، من أن يأتيها زوجها وابن عمها بضرة !؟

لقد هم « على » بالزواج على فاطمة ، وفي حسابانه أنه إنما يجرى على مألوف عادة قومه في الجمع بين زوجتين وأكثر ، ويفعل ما أباحه له الاسلام من تعدد الزوجات ، دون أن يخطر بباله أن في هذا ماتكره بنت نبي الاسلام !
لكن الامر جرى على غير ما قدر « على » ...

فما كاد يهم بالزواج من بنت عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي ، حتى راعه أن يرى أبا الزهراء يقبل على المسجد مغضبا ، ويخطب في الناس منكرا على « ابن أبي طالب » أن يتزوج على فاطمة ، بنت عمرو هذا

لكن كيف والاسلام يبيح تعدد الزوجات ، ومحمد صلى الله عليه وسلم كان يجمع في بيته يومئذ بين زوجات ثلاث أو أربع ، فيهن عائشة بنت أبي بكر الصديق ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب الذي أعز الله به الاسلام ؟

كيف يحرم النبي ما أحله الله ، وينكر على ابن عمه ما لم ينكره على نفسه ؟

ليكن هذا الزواج مؤذيا لفاطمة ، أفلم تتعرض لمثله بنتا أبي بكر وعمر ؟

وهل يأبى النبي أن يجوز على ابنته ما يجوز على كل مسلمة ، وهو القائل في المرأة السارقة : « لو كانت بنت محمد فاطمة ، لقطعت يدها » ؟

وهل استثنى الاسلام من تعدد الزوجات ، بنات نبيه الذي بلغ رسالته ؟

ياله من موقف بالغ الدقة والصعوبة والخرج !
فالنبي يعلم حق « على » في الزواج ولو على فاطمة بنت محمد

ومحمد ، في أبوته الرحمة وبشريته السوية ، يؤذيه أن
تروع أحب بناته بضرة ، ويشفق عليها من تجربة قاسية
ك هذه ، يعلم أنها لا قبل لها باحتمالها

الا ليت « عليا » قد صبر على واحدة ، أسوة بابن عمه
حين اكتفى بخديجة زوجة ، مدى ربع قرن من الزمان !
اذن لاعفى الاب النبي من الحرج ، واغناه عن ذلك الموقف
الشائك المريب

وانى لاتمثله صلى الله عليه وسلم ، يرتو الى بنته الغالية
وهى تترقب المحنة في خوف وقهر ، فتكاد لفرط أساها
ولوعتها تذوب من ضعف وكمد ، ويود بكل ما استطاع ان
يدفع عنها ماتكره ، وأن يحميها من الخوف الذى يقرح
اجفانها ويروع أمنها ، ويؤرق ليالها ، لكن الامر يبدو
معقدا ، فما كان لنبي أن يخون رسالته ، فيحرم ما أحل
الله !

وفي ظلمات الحيرة ، يلوح شعاع من الضوء ينير السبيل :
أن عليا ذكر بنت « عمرو بن هشام المخزومي » ، فهل يرضى الله
أن يجمع بيت « على » بين بنت رسول الله ، وبنت عدوه ؟
فعمر و هذا ، هو أبو الحكم بن هشام ، أو هو أبو جهل
الذى لم ينس الرسول والمؤمنون ما اقترف من آثام في
اضطهاد الدعوة الاسلامية

هو عدو الله الذى قال لقريش : « يامعشر قريش ، ان
محمدا قد أبى الا ماترون من عيب آلهتنا وشتم آبائنا
وتسفيه احلامنا ، وانى أعاهد الله لاجلسن له غدا بحجر ما
أطبق حمله ، فاذا سجد فضخت به رأسه ، فأسلمونى عند
ذلك أو امنعونى ، فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف
ما بدا لهم »

وهو هو القائل مستهزئاً بالرسول :

« يامعشر قريش ، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عدداً ، أفيعجز كل مئة رجل منكم عن رجل منهم ؟ »
فنزلت فيه الآية :

« وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا »

ثم هو هو القائل لمن سأله رايه فيما سمعه من محمد :
« ماذا سمعت ؟ تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف : اطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا كنا كفرسى رهان قأوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ؟ فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ! »

وهو هو الذي كان اذا سمع برجل أسلم ، من ذوى الشرف والمنعة ، أنبه وأخزاه ، وقال : « تركت دين أبيك وهو خير منك ؟ لنسفهن حلمك ، ولنقبحن رأيك ، ولنضعن شرفك » . وأن كان الذي أسلم تاجراً ، قال : والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك . وأن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به وهو هو ، الذي لقي حكيم بن حزام بن خويلد ، يحمل طعاماً يريد به عمته خديجة في محنة الحصار ، فتعلق اللعين به وقال : أتذهب بالطعام إلى بني هاشم ؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة . وأبى أن يطلقه حتى اشتبكاً ونال أحدهما من صاحبه

وفيه نزل قوله تعالى :

« ان شجرة الزقوم طعام الاثيم ، كالمهل يغلى في البطون كغلى الحميم ! »

وهو هو الذى اعترض وفدا من النصارى جاءوا مكة
يستطلعون لقومهم امر محمد حين بلغهم خبره من الحبشة ،
فما جلسوا اليه واستمعوا له حتى آمنوا به . فلقاهم اثر
انصرافهم ابو جهل فقال لهم : « خيبكم الله من ركب ! بعثكم
من وراءكم من اهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ،
فلم تظلمن مجالسكم عنده حتى فارقت دينكم وصدقتموه !!
مانعكم ركبا احمق منكم ! » السيرة ٣٢/٢

وهو هو الذى رأى لقريش قبيل الهجرة ، أن تختار كل
قبيلة منها فتى شابا جليدا نسيبا ، ثم يعطى سيفا صارما ،
فيعمدوا جميعا الى محمد ويضربوه ضربة رجل واحد ،
فيقتلوه ، فيتفرق دمه فى القبائل جميعا « السيرة ١٢٦/٢ »
فلما هاجر الرسول ، غدا القوم وفيهم ابو جهل ، فوقفوا
بباب ابى بكر ، فخرجت اليهم أسماء فقالوا لها :
« اين ابوك يابنت ابى بكر ؟ » أجابت :
— لا ادرى والله اين أبى

فرفع « ابو جهل » يده — وكان فاحشا خبيثا — ولطم
خدها لطمه طرحت قرطها « السيرة ١٣٢/٢ »

وحين تهيأ الفريقان للقتال فى بدر ، بعث جيش قريش
من يأتوها نبأ العدو ، فرجع اليها محذرا ، ومشى حكيم بن
حزام بن خويلد الى عتبة بن ربيعة يرجوه أن يرجع بالناس ،
فكاد عتبة يستجيب له ، وسأل « حكيم » أن يذهب الى
ابى الحكم ، فما يخشى « عتبة » المخالفة من سواه ، فلما سمع
ابو جهل بهذا ، أبى الا القتال !

وقتل كافرا ملعونا ، وجيء برأسه الى « محمد »
فحمد الله !

اتكون ابنة هذا الرجل ، ضرة لفاطمة بنت النبي ؟
يأبى الرسول ذلك ! ويأباه الاسلام !
وانطلق صلى الله عليه وسلم الى المسجد مغضبا حتى
بلغ المنبر فخطب في صحبه قائلا :

« ان بنى هشام بن المغيرة استأذنوني ان ينكحوا ابنتهم
على بن ابي طالب ، فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم ،
اللهم الا ان يحب ابن ابي طالب ان يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ،
فان ابنتى بضعة منى يربىنى ما ارباها ويؤذنى ما آذاها ،
وانى اتخوف ان تفتن فى دينها »

ثم ذكر صلى الله عليه وسلم صهره ابا العاص - وهو
من بنى عبد شمس ، لامن بنى عبد المطلب كعلى - فائتى
عليه فى مصاهرته اياه احسن الثناء وقال :

« حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فأوفى لى ، وانى لست
أحرم حلالا ولا أحل حراما ، ولكن والله لا يجمع بنت رسول
الله وبنت عدو الله بيت واحد أبدا »

ولقد ورد هذا الحديث فى الصحيحين : « البخارى
٢٩/٥٣٨ ، ومسلم ٤٤/٩٣ » ولكن احدا من الرواة لم
يذكر لنا وقعه على المسلمين وصداه فى المدينة

فهل ترى يعيننا ان نتصور مدينة الرسول وقد باتت
ليلتها ساهرة ، تؤمن على قول النبي ، وترى فيه مظهرا
جميلا من مظاهر بشريته التى طالما اصر على الاعتراف بها ،
وآية ناطقة بأبوته الرحيمة التى كانت مضرب الامثال ، ودليلا
جديدا من أدلة حبه لبناته ، هذا الحب الذى شاء الله ان
يملا به قلب النبي المختار ، فى بيئة وادت بناتها ؟!

أو هل يقصر خيالنا عن متابعة « على » وهو ينصرف من

المسجد اثر سماعه خطبة صهره النبی ، ویأخذ طريقه الى
بيته بطيء الخطو ، مثقل القلب يفكر فيما كان !؟
اتراه حقا قد أراد الزواج على فاطمة ، من بنت عدو
الاسلام ؟

كيف هان عليه جهاده الطويل الباسل في سبيل الدعوة
المحمدية ؟ بل كيف هان عليه ان يروع أمن الحبيبة بنت
الحبيب ، ويكسر قلبها بزواج كهذا لايمكن أن يؤول الا
بالرغبة في متاع حسی مادی ، لايجده لديها ؟
انقد كان لزواج « محمد » من كل واحدة من نسائه
مبرراته الخاصة ، وظروفه الملجئة ، والا فما باله صلى الله
عليه وسلم ، قد اكتفى بخديجة خمساً وعشرين سنة ،
فلم يتزوج عليها حتى ماتت ، وقد بلغ الخمسين من عمره ،
وحين كانت الاحداث الكبار تشغل باله ، والجهاد في سبيل
الدين الجديد يملأ وقته ؟

الا فلتكن بنت أبي جهل من حظ غيره ، اما هو ، فليس
بالذي يحبط جهاده الباسل ، فيستبدل بالنبي ، أبا
جهل بن هشام صهرا ! وليس هو بالذي يؤذى نبيه وأباه
وابن عمه ، في أحب بناته اليه ، وان يكون أبو العاص
العيشمي ، قبل اسلامه ، أبر منه ببنت محمد بن عبد الله بن
عبد المطلب ، ولا أرعى في مصاهرته للنبي ذمما !



وينتهي به المسرى الى البيت ، حيث يجد « الزهراء »
في وحدتها تجتر أحزانها وتسامر همومها ، فيدنو منها حتى
يأخذ مكانه الى جانبها صامتا لايدري ماذا يقول
واذ رآها تبكى ، همس معتذرا :

— هبيني أخطأت في حقك يا فاطمة ، فمثلك أهل للعفو والمغفرة ..

ومضت قطعة من الليل قبل أن تجيب :

— غفر الله لك يا ابن العم

فلثم أطراف أناملها ، ثم راح يروى لها ما كان من حديث المسجد ، ويصف لها مشاعره حين سمع ابن عمه يتحدث عن ضيقه بالأذى يلحق ابنته فاطمة ، وانكاره أن يتزوج على من بنت أبي جهل مع الزهراء ، وقسمه ألا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله بيت واحد أبدا !

واغرورت مقلتا « فاطمة » بالدموع تأثرا بحب أبيها ، وانفعالا بموقفه ، ثم قامت للصلاة !



وبقى سؤال ذو بال :

متى هم « على » بالزواج على الزهراء بنت النبي ؟

صمت المؤرخون ورجال الحديث فلم يشيروا الى موعد الخطبة ، على ما لذلك من أهمية وخطر ، لكننا نطمئن الى انها كانت في الفترة الاولى من زواجهما ، وهو اطمئنان لا يسنده دليل نقلي ، وانما يغرينا به فهمنا لطبيعة الموقف ، وتقديرنا أنه اقرب احتمالا ، حين كانت فاطمة وعلى في مستهل حياتهما الزوجية ، لم تألف بعد شدته وصرامته ، ولم يرض هو نفسه على احتمال ما كانت لاتزال تجد من حزن لفقد أمها ، وشجو لفراق بيتها الاول !

وبهذا الاطمئنان ، نميل الى تحديد الحادثة على وجه التقريب ، في العام الثاني من الهجرة ، قبل أن يأتيهما العام الثالث بأولى الثمرات المباركة للزواج

انقضت السحابة التي ظلت أفق « الزهراء » حينما
لأنحد مداه ، وعاد البيت أصفى جوا مما كان قبل أن
يمتحن بتلك التجربة القاسية ، ومضت الحياة تسير
بالزوجين الكريمين على مايرجوان من تعاون ومودة : فاطمة
في الدار تقوم على خدمة زوجها ماوسعها الجهد ، وتتخلص
شيئا فشيئا مما كان يعتادها من شجن وانقباض ، وعلى
الى جانبها يبذل لها من الحذب والرعاية مايعينها على مشقة
العيش الكادح في جو « المدينة » الذي لم تسعفها صحتها
على أن تألفه بسرعة كما ألفه كثير من المهاجرين ، ويحاول
قدر ما اطاق ، أن يترفق بها ويروض نفسه على شيء من
اللين واليسر

ثم شاء الله أن يقر عين الزهراء وعيون من يحبونها ،
فوضعت بكرها « الحسن بن علي » في السنة الثالثة من
الهجرة ، وسعى البشير الى أبيها النبي بالنبا السعيد ،
فخف اليها مشوقا فرحا ، وحمل وليدها بين ذراعيه ، وتلا
الاذان في مسمعه ، وذوقه لعابه الطهور ، ثم اقبل عليه
يتأمله في غبطة وحنان وهو يذكر ولديه اللذين استردهما
الله صغيرين قبل سن الفطام !

واحتفلت مدينة الرسول بمولد « الحسن » وتصدق
جده صلى الله عليه وسلم على الفقراء من أهلها بزنة شعره
فضة . ثم راح يرقب تفتح الحياة في هذه الفلذة الغالية
منه ، فما بلغ الوليد من العمر عاما وبعض عام ، حتى أردفته
أمه الزهراء بشقيقه « الحسين » في شهر شعبان ، سنة
أربع من الهجرة

وتفتح قلب النبي لهذين الحفيدين الغاليين يملآن حزن
أم أبيها « الزهراء » ، ورأى فيهما امتدادا لحياته الخاصة على

هذه الارض ، ومتنفسا لما يفيض به قلبه الكبير من عاطفة
الابوة التى يئست من الولد منذ ماتت خديجة رضى الله عنها
كانت سن الرسول اذ ذاك - فى العام الرابع الهجرى -
سبعة وخمسين عاما ، وقد مضى على وفاة خديجة ما يقرب
من سبع عشرة سنة ، تزوج خلالها من خمس نساء : سودة
بنت زمعة الكهله الارملة ، وعائشة بنت ابي بكر الصبية
الغذراء ، وحفصة بنت عمر الشابة الناضجة ، وزينب بنت
خزيمة أم المساكين ، وأم سلمة ، هند بنت ابي أمية المخزومي
زاد الركب ، وقد دخل بها فى شوال من السنة الرابعة
للهجرة ، كما نقل الطبرى « ٢/٣ » وكان لها من زوجها
الاول ، عبد الله بن عبد الاسد بن المغيرة ، ابن عمه الرسول
برة بنت عبد المطلب : سلمة ، وعمر ، ودرة ، وزينب .
ومع ذلك ، لم يرزق النبى بولد من احدى هاتيك الزوجات
الخمس ، وبدا أن قد انقطع خلف محمد بن عبد الله ، الا
أن يكون عن طريق ابنته « الزهراء »

فلا عجب أن اقبل الرسول على سبطيه « الحسن
والحسين » يغمرهما بكل ما امتلأ به قلبه الكبير من حب
وحنان ، ويفيض عليهما من عاطفة الابوة ماشاء له الحرمان
من الولد ، على كثرة من تزوج من النساء

بل لاعجب أن دعاهما ابنيه ، فعن انس بن مالك أنه
صلى الله عليه وسلم « كان يقول لفاطمة رضى الله عنها :
ادعى لى ابنى . فاذا ما جاءا اليه شمهما وضمهما »

ونقل الترمذى فى (سننه) عن « اسامة بن زيد » أنه قال :
« طرقت باب النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض الحاجة ،
فخرج رسول الله وهو مشتمل على شيء لا أدري ماهو ،

فلما فرغت من حاجتي قلت : ما هذا الذي أنت مشتمل عليه يا رسول الله ؟

« فكشفه ، فاذا الحسن والحسين ، وقال : هذان ابناي وابنا ابنتي ، اللهم اني احبهما فأحبهما ، واحب من يحبهما »

وكان اسماهما - رضى الله عنهما - نفمة حلوة في فم ابي الزهراء ، يستعذبها ولا يمل من ترديدها ، وفيهما كان يجد انس و سلوته عمن فقد من الابناء !

لقد آثر الله الزهراء بالنعمة الكبرى ، فحصر في وادها ذرية نبيه المصطفى ، وحفظ بها اشرف سلالة عرفتها العرب منذ كانت

كما كرم الله وجهه « على » ، فجعل في صلبه نسل خاتم الانبياء ، فكان له من هذا الشرف مجد الدهر وعزة الابد

ولعل محمدا صلى الله عليه وسلم لو خير أي بناته تكون وعاء لنسله الطهور ، وأي اصهاره يكون ابا لاهل البيت الشريف ، لاختار ما اختاره له الله !

فعلى اقرب اصهاره اليه مكانا وامسهم رحما ، في عروقه يجري الدم الهاشمي الاصيل ، وعند عبد المطلب يلتقى نسبه بنسب الرسول ، فكلاهما له حفيد !

وقد كان لمحمد عند ابي طالب منزلة الابن : كفله منذ بلغ الثامنة من عمره ، حتى اذا شب واستقل بحياته بعد زواجه من السيدة خديجة ، ضم اليه عليا ابن العم ابي طالب ، وانزله من بيته وفي قلبه منزلة الولد

وليس لابي العاص بن الربيع ، ولا لعثمان بن عفان ، مثل هذه الآصرة من الرحم ولا تلك المكانة من القربى ، وان كان

أكل منهما موضعه الذى لايسامى فى قریش ، ومكانه الذى لايجحد فى الاسلام

وكان «على» يعرف منزلته عند صهره النبى ويعتز بها الى حد جعله يسأل الرسول ذات مرة وقد غمره فيض عطفه :
- أيهما أحب الى رسول الله : ابنته الزهراء ، أم زوجها على

فأجاب الرسول فى ابتسامة لبقة :

- فاطمة أحب الى منك ، وأنت أعز على منها !

وليس بمستغرب بعد هذا ، ان يعى الزمن من آيات حب الرسول للزهراء وعلى وبنيهما ، مانستطيع معه أن نتمثله صلى الله عليه وسلم وهو يرنو الى بيت صهره «على» كلما مر به ، وقلبه الكريم يخفق حبا وحنوا ، فاذا وجد من وقته سعة ، عرج على دار الاحبة ، فأسعد أهلها بعطفه ، وأسبغ على حفيديه فيضا من حنائه الغامر !

وحدث فى احدى المرات ان الفى ابنته وزوجها وقد غلبهما النعاس ، والحسن يبكى ويطلب طعاما ، فلم يهن على الاب النبيل أن يوقظ العزيزين النائمين ، بل أسرع الى غنمة كانت تقف فى ساحة الدار ، فحلبها وسقى «الحسن» من لبنها حتى ارتوى !

ومر بالبيت يوما وهو متعجل ، فبلغ مسمعه صوت بكاء الحسين ، فدخل يقول لابنته معاتبا :
- أو ما علمت أن بكاءه يؤذنى ؟



ولا أصف هنا ما كان لهذا الحب الابوى من اثر بعيد عميق فى اسعاد «فاطمة» التى ارهقها الحزن صغيرة ، وانهكها العبء شابة ، بل لاأصف هنا مدى مابعث فى حياتها

الزوجية التي عرفنا خشونتها وقسوتها ماديا ، من بهجة
وانس واشراق . فلقد اسعد « فاطمة » أن تكون أما لهذين
الولدين الاثريين عند أبيها صلى الله عليه وسلم ، وأرضاها
أن تستطيع بفضل الله ، أن تهيب لابيها الحبيب - بعد أن
انتقلت من بيته - هذه المتعة الغامرة التي يجدها في حفيديه
الغاليين

ولم يكن على - كرم الله وجهه - أقل منها سعادة
وغبطة ، فلقد سره ، بل ازدهاه ، أن تتصل به حياة ابن
عمه النبي هذا الاتصال الوثيق ، فيمتزج دمه بدم النبي
الزكي ، لتخرج من صلبه ذرية سيد العرب ، وبنو ابنته
الزهراء ، ويذهب دون الناس جميعا بمجد الأبوة لسلالة
النبي ، وآل بيته الأكرمين



وتتابع الثمر المبارك : ولدت الزهراء طفلتها الاولى في
العام الخامس من الهجرة ، فسمّاها جدّها « زينب »
تحية لذكرى خالتها الراحلة التي لم ينسها أبوها ، ولانسيتها
اختها « فاطمة » قط !

ثم وضعت الزهراء بعد عامين من مولد « زينب » ، طفلة
ثانية اختار لها الرسول اسم ابنته « أم كلثوم » ، كأنما
كان يحس أنه تأكلها بعد عامين اثنين !

وبذلك قدر للزهراء أن تحيي بابنتيها ذكرى اختيها
زينب وأم كلثوم بنتي النبي ، كما شاء لها الله أن يكون منها
ولدا الرسول « الحسن والحسين » حين عز الولد

وحفظ الله تعالى لنبيه هذا القدر من سعادة الأبوة ، فلم
يفجعه في الزهراء ولا في أحد من بنيها حتى لحق - صلى
الله عليه وسلم - بالرفيق الاعلى

لقد مات ولداه « القاسم وعبدالله » صغيرين ، ثم رزقه الله على الكبر غلامه الثالث « ابراهيم » فى ذى الحجة من السنة الثامنة بعد الهجرة ، فقرت به عينا محمد صلى الله عليه وسلم ، لكن الفرحة به لم تتم ؛ اذ ما لبث الهلال ان غرب ، وتكل النبى ولده الثالث قبل ان يستكمل عامه الثانى ، وابوه اذذاك قد جاوز الثانية والستين من عمره !

وكذلك ماتت بناته الثلاث : زينب ورقية وأم كلثوم ، وهن فى ربيع العمر ، وأرقدهن أبوهن الشاكل المحزون ، واحدة بعد الاخرى ، فى ثرى يشرب الذى ضم جثمان أبيه عبدالله ولما يزل محمد جنينا فى رحم أمه « آمنة بنت وهب »

وعاشت له فاطمة ، كما عاش بنوها يملئون دنيا الرسول بهجة وأنسا ، ويرضون فيه عاطفة الأبوة التى آدها تكل البنين والبنات ، ولم يبق لها الا هذه الابنة الحبيبة ، تعوض أباهما عن فقد ، وتعزيه عن غاب ..

عاشت « الزهراء » ليظل محمد ما عاش يجد من يدعوه : « يا أبت ! »

وعاش ولداها ليظل النبى الانسان يسعد بترديد اللفظ العذب « ابنى »

وعاشت بنتها زينب وأم كلثوم ليظل الأب الحنون يدعو باسم ابنتيه الراحلتين ، بعد ان أقام زمنا يفتقدتهما ويمسك لسانه عن ندائهما !

ووقف التاريخ الانسانى يرقب مبهورا هذا النبى الانسان ، فى أبوته الفياضة بأنقى الحب وأصفى الحنان ، وأصغت الانسانية فى فخر واعتزاز ، الى ما تواترت به الانبياء من

حديث ذلك الحب الكبير ، الذى يكشف عن جانب من عظمة
الرجل المصطفى من السماء !

وما تزال حتى اليوم ، وحتى غد ، والى الأبد ، تتلو هذا
الحديث ، وترى فيه آية من آيات الله الذى سوى ذلك
البطل ، بشرا رسولا !

وهيهات لها ان تنسى مشهد النبى وهو يمشى فى أسواق
المدينة حاملا أحد حفيديه على كتفه ، حتى اذا بلغ المسجد
وقام للصلاة ، وضعه الى جانبه فى رفق واقبل يؤم القوم ،
فتأخذهم الحيرة والعجب اذ يطيل السجود على غير المألوف
من عادته ، فلما قضيت الصلاة قيل له :

— يا رسول الله انك سجدت سجدة اطلتها حتى ظننا
انه قد حدث أمر أو أنه يوحى اليك ،
فقال :

— كل ذلك لم يكن ، ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت أن
أعجله حتى يقضى حاجته !

أو تنسى مرآه وقد وقف يوما يخطب المسلمين ، فجاء
الحسن والحسين ، عليهما قميصان أحمران ، يمشيان
ويعثران ، فنزل النبى صلى الله عليه وسلم من المنبر ،
فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال يخاطب القوم :

— صدق الله : انما أموالكم وأولادكم فتنة ! نظرت الى هذين
الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثى
ورفعتهما !

أو تغيب عنها صورته ، وهو آخذ بكتفى الحسين ،
وقدماه على قدمه صلى الله عليه وسلم ، يرقصه قائلا :
« ترق ، ترق » فما يزال الصبى يرقى حتى يضع قدميه

على صدر جده ، فيقول له : افتح فاك ! فيفتحه ، ويقبله
صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « اللهم أحبه ، فانى
أحبه ! »

أو يفوتها موقفه ، وقد خرج يوما في نفر من صحابته
الى طعام دعوا اليه ، فاذا بالحسين في السكة يلعب مع
غلمان من اترابه ، فتقدم الرسول امام القوم وبسط يديه
محاو لا أن يمسك بحفيده ، والفلام يفر هاهنا وهاهنا ،
فما زال - عليه الصلاة والسلام - يضاحكه حتى أخذه ،
فوضع احدى يديه تحت قفاه ، والاخرى تحت ذقنه ،
ثم قبله وقال :

« حسين منى وأنا من حسين . احب اللهم من احب
حسينا ! »

والناس من حوله خاشعون اجلالا ، يقول قائلهم : اراه
صلى الله عليه وسلم يصنع هذا بحفيده ، فوالله ان لى
ولدا وما قبلته قط !

فيرد النبى الانسان ، وقد أنكر هذه الغلظة الجافية :
« من لا يرحم ، لا يرحم ! »



ويرخى الزمن للزهراء ، لتشهد أباهما البطل وهو يغزو
الجزيرة بالنور الجديد ويدنو من النصر المؤزر الذى وعده
الله به والمسلمين ، وتمسى رضى الله عنها ذات ليلة ، وهى
تتأهب للسفر الى مكة ، وقد ذاد الكرى عن عينيها قرب
الأوبة الى الوطن الذى غابت عنه ثمانية أعوام ، فراحت
تسامر زوجها الفارس وتستعيد وياه ذكريات صباهما
الحلو الذى مضى وراح :

أترى مكة لا تزال على العهد بها كما تركاها منذ سنين ،
أم غيرها كر الغداة ومصر العشى ، ومحت يد الحدثان من معالمها
ما كان لهما بالأمس مهذا ومرتعاً ؟

ودار الأهل ، حيث مولد « فاطمة » ، أتراها باقية
كما كانت ، أم عدا عليها العدو فنقضها وصيرها ظللاً دارساً
وخراباً بلقعا ؟

والكعبة الفراء ، أما يزال الحمام الأبيض الجميل يرتع في
حماها آمناً ملء الحرية والطلاقة والحياة ، أم روعته الوثنية
الغاشمة الضالة فانكمش هنالك مكتئباً محزوناً مهيض
الجناح ؟

وملاعب الصبا ، أما تزال تذكر من رحل عنها من
الأحباب ، أم نسيتهم على مر الأيام وتطاول السنين ،
فعادت لا تعرف منهم اليوم أحداً ولا ترد لسائل جواباً ؟
ومشوى خديجة ، وقبر أبى طالب ، وقبور غيرهما من
الأهل والعشيرة ، أما تزال محتفظة بردائعها الغالية ، أم
نبشها الطغاة الكفرة وبعثروا ما بها من رفاة الأعزة
الراجلين ؟



واذ هما في غشية من شجوهما يطرق الباب ، فينهض
على - كرم الله وجهه - ليرى من الطارق بليلاً ، وتفتح
« الزهراء » عينيها وما يزال فيهما بقية من خدر الذكرى ،
فاذا أمامهما « أبو سفيان بن حرب » حامل لواء المشركين ،
وزوج آكلة الأكباد التى صنعت ما صنعت بشهداء أحد ،
ثم راحت تغرى قومها بنبش قبر « آمنة أم محمد »
اشتفاءً وحققاً

ويتكلم « أبو سفيان » فيذكر مجيئه الى المدينة لما باغ قريشا تأهب « محمد » للمسير الى مكة ، فرأى من قوة الاسلام وضخامة استعداد الجيش المعبأ للزحف على مكة ، ما روعه . فدخل على ابنته « رملة ، أم حبيبة ، زوجة الرسول » فما كاد يهيم بالجلوس على الفراش حتى طوته عنه كراهة أن يجلس عليه وهو مشرك ، فانصرف محزوناً حتى أتى النبي فكلمه فلم يرد عليه شيئاً ، فذهب الى أبي بكر ، ثم الى عمر ، يسأله أن يكلم له الرسول ، فأبى عمر قائلاً : أنا أشفع لكم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فوالله لو لم أجد إلا الدر لجاهدتكم به !

وصمت « أبو سفيان » ريثما استرد أنفاسه ثم قال لابن أبي طالب :

— يا علي ، انك أمس القوم بى رحماً ، وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجع كما جئت خائباً ، فاشفع لى الى رسول الله فقال علي :

— ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم الرسول صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه فالتفت « أبو سفيان » الى الزهراء ، وكانت حتى تلك اللحظة صامتة لم تتكلم ، فقال لها وهو يشير الى غلامها « الحسن » الذى استيقظ من نومه ، وراح يدب بين يدي أمه :

— يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجبر بين الناس ، فيكون سيد العرب الى آخر الدهر ؟ أجابت فى هدوء :

— والله ما بلغ بنى ذاك أن يجبر بين الناس ، وما يجبر

أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقام « أبو سفيان » لينصرف خائباً محسوراً ، ثم تلبث
لدى الباب برهة وقال فى انكسار :
- يا أبا الحسن ، انى أرى الامور قد اشتدت على
فانصحنى
قال على :

« والله ما أعلم لك شيئاً يفتنى عنك شيئاً ، ولكنك سيد
بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك »
قال :

« أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً ؟ »
فصمت « على » يفكر لحظة ثم أجاب :
- لا والله ما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غير ذلك
فانصرف « أبو سفيان » وقد استقر عزمه على أن يعمل
بما أشار « على » ، وأغلق الزوجان بابهما وجلسا يتحدثان
فى عجائب القدر وتصاريف الأيام ، حتى مضى شطر من
الليل فناما يحلمان بالأوبة المنتظرة الى أم القرى : مقر
الكعبة ، ومهد الصبا ، ومنزل قریش !



وسار النبى الى مكة فى عشرة آلاف من المسلمين ، ميمما
شطر البلد الحرام الذى تسلك منه منذ ثمانية أعوام ولا أحد
معه الا صاحبه وحموه الصديق
وخرجت « الزهراء » فيمن خرج من آل الرسول ،
لتشهد العودة الظافرة والنصر المبين
ولم يفتها أن تلمح خلال النقع المثار ، تلك البقعة التى

كادت تلقى فيها حتفها وهى فى طريقها الى دار الهجرة ، مع
اختها « أم كلثوم » ..

وهاجت شجونها للذكرى : أين أم كلثوم ، وأين رقية ،
وأين زينب ؟ لقد هاجرن جميعا من مكة ، لكن الى غير رجعة
أو مآب ..

وهذه هى ، تعود وحدها ، وتخلفت شقيقاتها الثلاث ،
ثاويات فى ثرى المدينة !

غير أن أطيا فهن بقيت معها ، وهى تقترب من أم القرى ،
فما انفكت فى غمرة من شجوها وأساها حتى بلغ الركب
« مر الظهران » حيث عسكر النبى بجيشه ترقبا للمعركة
الفاصلة



غير أن النهار لم يكد يولى ، حتى أقبل « أبو- سفيان بن
حرب ، قائد لواء المشركين » فبات ليلته بباب النبى انتظارا
لأمره صلى الله عليه وسلم فى أهل مكة ، فلما تنفس الصبح
دخل على محمد فأسلم ، ثم انطلق عائدا الى مكة فوقف
بحيث يسمع وقال :

« يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم
به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه
بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن »

فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد الحرام ، ووقف
الرسول على راحلته يذى طوى ، بين كبار الصحابة ، ثانيا
رأسه تواضعا لله على ما أكرمه ، حتى لتكاد الشعرات التى
بين شفته وذقنه تمس الرحل

ونظم دخول جيشه الى البلد العتيق ، فقسمه فرقا على

راس كل منها احد كبار الصحابة ، وكانت الراية مع سعد
ابن عبادة فقال الرسول لعلى :

— ادركه فخذ الراية منه فكن أنت الذى تدخل بها !
ودخل الرسول من « اذخر » حتى نزل بأعلى مكة ،
وضربت له قبة هناك ، قريبا من مثوى « خديجة »
وصحبته اليها ابنته « الزهراء » وقد أنساها الفرح
الأكبر كل ما ألم بها من شجن ، منذ مرت بالمكان الذى
نخس فيه « الحويرث » راحلتها وهى مهاجرة من مكة ،
فألقت بها على الارض
لكن أباه لم ينس !

وهذا هو يعهد الى أمرائه من المسلمين الا يقاتلوا الا من
قاتلهم ، واستثنى نفرا سماهم بأسمائهم ، وأمر بقتلهم ولو
وجدوا تحت أستار الكعبة
وكان من هؤلاء الحويرث بن منقذ ، وقد تولى قتله زوج
الزهراء

وسجد الرسول لله شاكرا
وكادت الجبال تتصدع من خشية ورهبة ، وهى تصفى
الى هتاف عشرة آلاف من المسلمين :

الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، لا اله الا الله
وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ،
لا اله الا الله والله أكبر ...



ثم أوى البطل الظافر الى قبته ، حيث كانت « الزهراء »
تنتظره هناك

حدثت أم هانئ بنت أبي طالب - وكانت زوجة إبييرة
ابن أبي وهب المخزومي - قالت :

« لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة ،
فر الى رجلان من بنى مخزوم - قال ابن هشام : هما الحارث
ابن هشام ، وزهير بن أمية بن المغيرة ، السيرة ٥٥/٤ -
فدخل على أخى على بن أبي طالب ورآهما فقال : والله
لأقتلنهما . فأغلقت عليهما باب بيتي ثم جئت رسول الله
صلى الله عليه وسلم وهو بأعلى مكة ، فوجدته يغتسل من
جفنة فيها أثر العجين ، وفاطمة ابنته تستره بثوبه ، فلما
اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به ، ثم صلى ثماني ركعات من
الضحى ، ثم انصرف الى فقال : مرحبا وأهلا يا أم هانئ ،
ما جاء بك ؟ فأخبرته خبر الرجلين وخبر على ، فقال صلى
الله عليه وسلم : قد أجرنا من أجرت ، وأمنا من أمنت ،
فلا يقتلنهما » . السيرة ٥٥/٤

واستراح الرسول برهة ريثما اطمأن الناس اثر موجة
الفتح الدافقة ، فخرج حتى جاء البيت الحرام وسط الجموع
الزاهرة . فطاف به سبعا على راحلته ، فلما قضى طوافه
امر ففتحت له الكعبة ثم وقف على بابها فخطب في الناس
خطبة الفتح ، ثم قال :

« يا معشر قريش ، ما ترون انى فاعل بكم ؟ قالوا :
خيرا ، اخ كريم وابن اخ كريم . قال : اذهبوا فانتم
الطلقاء »

واقبل المساء رقيقا ينديا بعد نهار حار ، حافل بالحركة
والضجيج ، فضمت « أم القرى » جناحيها على ابنائها
المهاجرين العائدين ، وعلى من نزل معهم من الانصار وبقيّة

المسلمين ، وسهرت السماء ترى ذلك الحشد الضخم الذى
لم تشهد قط مثله حول قائد نبى ، وطافت الملائكة بحزب
الله تبارك انتصاره على حزب الشيطان

وهناك كانت « فاطمة » غير بعيدة من أبيها البطل ،
ترقد ساهرة فى فراشها ، يقضى لا تنام

كم شاقها فى ذلك الليل الساجى أن تتمثل امها خديجة
وهى تطل من علاها على حبيبها النبى فى يومه الأغر الميمون ؟ !
وكم شجاها أن تتمثل شقيقاتها الثلاث الراقصات
بيثرب ، تسرى ارواحهن الى البلد العتيق الذى لم يكتب
لهن رجعة اليه ، فتطيف بمن بقى من الأهل والأحباب
وتشاركهم فرحة النصر المؤزر ؟ !

وكم رقا قلبها لذكرى طفولتها الباكرة فى البيت السعيد ،
حيث الشمل ملتئم والحياة حب وصفو !

اوكم استهواها أن تبیت هكذا ساهرة يقضى ، حتى
تسمع صوت « بلال » يؤذن لصلاة الصبح من فوق الحرم
الأقدس ، فيخشع الكون لجلال الدعاء ، ويخف المؤمنون من
مضاجعهم ساعين الى المسجد الحرام ، ليؤدوا للمرة الاولى
فى تاريخ الاسلام ، فريضة الصبح فى البيت العتيق المطهر
من الأوثان !

وقال « على » وهويتهيا للخروج الى صلاة الصبح :

— أما نمت يا أم الحسن ؟

أجابت وقد غلبها التأثر :

— بل أردت أن أستمع بعودتنا الظافرة وأنا كاملة

اليقظة ، وكأننى أشفق اذا نمت ، أن يكون الامر كله حلما
فى الكرى

ثم قامت تصلى ، واغفت قليلا بعد أن طال بها السهر



وأصبحت تمنى نفسها بالعودة الى دار مولدها ، ومرتع
صباها وصبا « على » ربيب النبى ، ولكن هذه الدار
كانت قد انتقلت على اثر الهجرة الى ملك « عقيل بن أبى
طالب » ولم يشأ الرسول أن يستردها منه
وتساءلت الزهراء : ترى أى دار يختار أبى لتكون لنا فى
مكة منزلا ؟

وكذلك تساءل الانصار ، وقد ظنوا أن الرسول مقيم
بمكة ، لما رأوا من ابتهاجه صلى الله عليه وسلم باسلام
قريش ، وحرصه على تألفهم ، وغبطته بالرجوع الى مكة
بعد طول اغتراب
وقال قائلهم :

« لقد لقي والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ! »
وانشد شاعرهم « حسان بن ثابت الانصارى » يعاتب
الرسول على اثاره قريشه وقبائل العرب بالعطاء والفىء
دون الأنصار :

وات الرسول فقل : يا خير مؤتمن
للمؤمنين اذا ما عدد البشر
علام تدعى « سليم » وهى نازحة
قدام قوم همو آووا وهم نصروا ؟
سماهم الله أنصارا بنصرهم
دين الهدى وعوان الحرب تستعر
وسارعوا فى سبيل الله واعترفوا
للنائبات وما ضاقوا وما ضجروا
والناس الب علينا فيك ، ليس لنا
الا السيوف وأطراف القنا ووزر

فما وثينا ، وما خمنا ، وما خبروا
منا عثارا وكل الناس قد عثروا !
وبلغ الصوت مسمع « فاطمة » كما بلغ مسمع كل من
في مكة ، فقدرت أن لهذا العتاب ما بعده ، واشفقت من
الموقف الصعب ، وإن اطمأنت إلى أن أباه صلى الله عليه
وسلم سوف يجد منه مخرجا

لكن أى مخرج ؟

لم تدر « فاطمة » على التحديد ، حتى سمعت أباه
يسأل « سعد بن عباد » وقد شكاه ما تجد الأنصار :

— فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

أجاب الرجل :

— يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومي

فلم تبد على النبي العربي بادرة ضيق أو ضجر ، بل
عطف على صاحبه وطلب إليه أن يجمع له قومه الأنصار ،
فلما فعل « سعد » ، خرج إليهم الرسول فحمد الله وأثنى
عليه ثم قال : « يا معشر الأنصار ، ما قاله بلغتنى عنكم ،
وجدة وجدتموها على في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم
الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف بين قلوبكم ؟ »

أجابوا :

« بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل »

قال :

« ألا تجيبوننى يا معشر الانصار ؟ »

قالوا مشفقين :

« بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل »

فما راعهم الا أن قال النبي الكريم :

« أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتهم ولصدقتهم : أتيتنا
مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فأويناك ،
وعائلا فأسيناك ! أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم ، في
لعاعة - بقله خضراء ناعمة - من الدنيا تألفت بها قوما
ليسلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر
الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول
الله الى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده ، لولا الهجرة
لكنت امرا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت
شعبا لسلكت شعب الأنصار ! اللهم ارحم الأنصار وأبناء
الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ! »

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وهتفوا بملء أيمانهم :
رضينا برسول الله قسما وحظا !

وكذلك بكى أهل مكة ، وقد راوا الرسول يوشك أن
ينصرف راجعا الى دار الهجرة التي اختارها منزلا ومقاما
وراحت « الزهراء » تودع دار الصبا ، وتزور قبر
« خديجة » قبل أن يحين الرحيل !

ولم يجاوز مقامها بمكة غير شهرين وبعض شهر : جاءتها
في شهر رمضان من العام الثامن للهجرة ، وغادرتها مع
أبيها الى مدينة الأنصار ، في أخريات ذى الحجة من العام
نفسه

لكنما كان الأمر كله كما قالت فاطمة في الليلة الاولى بعد
الفتح ، حلما في الكرى أو رؤيا منام

وقد امتد الحلم الهنيء عامين ، سعدت فيهما « الزهراء »
بصحبة أبيها تستجلى طلعتها البهية في الغدو والأصال ،
وتنعم بحبه المضاعف لها ولبنيتها وزوجها ، ما شاء الله لها

أن تنعم . وقد أتيح لها في تلك الفترة أن تسترد بعض ما ذهبت به الصدمات الأولى من قواها ، فتتوفر على تربية بنيتها - أحفاد الرسول وأحبابه - تاركة شئون الدار لخدام جاء بها « علي » بعد أن أيسر بما ناله من غنائم الفتح والنصر !



ثم كانت الیقظة المروعة !
شكا أبو الزهراء صلى الله عليه وسلم من مرض ألم به في ليال بقين من شهر صفر في السنة العاشرة ؛ فحسب آل البيت والمسلمون أنها وعكة طارئة لا تلبث أن تزول ، دون أن يجرؤ أحد على الظن بأنه مرض الموت !

غير أن « الزهراء » وحدها لم تكد تسمع بشكوى أبيها النبي حتى أجفلت وكأنما لسعتها نار !

ذلك أنها ذكرت حديثا أسر به صلى الله عليه وسلم إليها منذ أيام ، وكانت قد جاءت لزيارته وهو عند أم المؤمنين عائشة ، فلما رآها أبوها مقبلة ، أشبه أحد به سميا وهديا على ما وصفت عائشة ، هس للقائها قائلا : « مرحبا بابنتي » ثم قبلها واجلسها الى يمينه وأسر إليها أنه يحسب أن قد حان أجله ، فلما بكت هون عليها بقوله :

« وإنك أول أهل بيتي لحوقا بي » ثم أضاف : « ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة ؟ »

فسرها ما سمعت ، وضحكت بعد بكاء ، فعجبت عائشة وقالت : « ما رايت كاليوم فرحا اقرب الى حزن ! » ثم سألت الزهراء حين سنحت فرصة ، عما أسر به الرسول إليها . فأجابت أم أبيها :

« ما كنت لأفشي على رسول الله سره ! »

وانصرفت يومئذ الى دارها ، وقد رد اليها بعض
طمأنينتها أن رأت أباه صلى الله عليه وسلم صحيحا معافى
فلما بلغها بعد أيام أنه يشكو ، ساورها قلق مشوب
بالخوف ، وأسرعت الى بيت أبيها وهى تحس أن قلبها قد
سقط من موضعه فى صدرها

ورأته يتحامل على نفسه ، ويتجمل بالصبر ، ويدور على
نسائه أمهات المؤمنين كمألوف عادته ، حتى اذا بلغ بيت
« أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية » تمام به وجعه
فدعا زوجاته اليه واستأذنهن فى أن يمرض فى بيت عائشة
وأقامت « الزهراء » الى جانبه تخدمه وتسهر عليه
حانية متجلدة ، تتكلف الصبر ، ولا تكف عن الدعاء والابتهال
لكن تجلدها خانها حين رأته وقد اشتد به الوجع ، يأخذ
الماء بيده ويجعله على رأسه وهو يقول : وأكرباه !
فخنقتها العبرة وقالت بصوت يفيض حزنا ولوعة :
« وا كرى لكربك يا ابتاه ! »

فرد عليها هو يرنو اليها فى عطف وحنو : « لا كرب على
أبيك بعد اليوم ! »

ثم حم القضاء ، ولحق محمد بالرفيق الأعلى ، وترك
الزهراء من بعده يتيمة حزينة ، لا تجد الى العزاء سبيلا !



واذهلها المصاب الفادح ، فما افقت من غشيتها الا وقد
تمت البيعة « لأبى بكر الصديق » فى السقيفة ، ولما يكد
يمضى على وفاة الرسول غير ثمان وأربعين ساعة فحسب !
وجمعت كيانه الممزق ، وتحاملت تسعى الى قبر

الحبيب وما تقوى قدماها على حملها ، حتى اذا بلغت اخذت
قبضة من تراب القبر فادنتها من عينيها اللتين قرحهما
البكاء ، ثم راحت تشمها وهي تقول متفجعة :

ماذا على من شم تربة احمد
الا يشم مدى الزمان غواليا ؟
صبت على مصائب لو انها

صبت على الايام عدن لياليا !
واستعبرت باكية ، فبكى الناس لبكائها ، وتقطعت نياط
قلوبهم وهم يرونها تفلت التراب من بين اناملها في حركة
يائسة ، ثم تحلق في يديها الفارغتين ، وتمضي ، كمن فرغت
من الدنيا !

وأبعوها عيونهم الدامعة وقلوبهم المتصدعة ، حتى اذا
بلغت دارها استأذن عليها « انس بن مالك : خادم أبيها
النبي » وراح يسألها الصبر الجميل
قالت له معاتبة :

— كيف ممكنك قلبك ان تسلم للارض جثة رسول الله ؟
فشهق بدمعه دون ان يجرؤ هو أو سواه على ان يعاود
الحديث معها في الصبر والعزاء !
الصبر والعزاء ؟ كيف وكل مصاب بعد مصابها لم ! ؟



ودخل على اثره زوجها « على » كرم الله وجهه ، وفي
صحبه رجال من بنى هاشم ، فتحدثوا على مسمع منها
بالذي كان من امر البيعة

أهنأك من هو أحق بالخلافة من على ربيب النبي ، وابن
عمه أبى طالب وزوج ابنته الزهراء ، وأبى الحسنين ريحانتي

الرسول ، وأول الناس اسلاما ، وأطولهم في الجهاد باعا ،
وفتى قريش شجاعة وعلماء ؟

وأمسكت « الزهراء » صامتا لا تعقب ، ومضت أيام
وهى فى عزلة عن الناس ، لا تنشط للنضال عن ميراثها
الذى أباه عليها أبو بكر ، وهل أبقى الحزن لها من قوة تسعفها
على نضال ؟

وكانت بحيث تظل منظوية على جراحها وحزنها ، لو لم
يدعها الواجب أن تؤدى حق زوجها وولديها عليها ، فتسعى
فى رد الأمر الى أهل بيت الرسول

وحملها « على » فوق دابة ، وخرج بها ليلا فطافت
بمجالس الأنصار مجلسا مجلسا ، تسألهم أن يؤيدوا
أبا الحسن فيما يطلب من حق جحد
أجابوا جميعا :

« يا بنت رسول الله ، قد مضت بيعتنا لأبى بكر ، ولو أن
زوجك وابن عمك سبق إلينا لما عدلنا به أحدا »
فكان الامام يقول :

« أفكنت أدع رسول الله فى بيته ولم أدفنه ، وأخرج
أنازع فى سلطانه ؟ »
وتردفا فاطمة :

« ما صنع أبو الحسن الا ما ينبغى ، ولقد صنعوا ما الله
حسيبهم وطالبهم »



ورجعت الى بيتها فلزمتها ، فما راعها حين أصبحت الا
ضجة قد علت قريبا من الباب ، وتناهى اليها صوت « عمر »

يحاول ان يدخل ، وهو يقسم منذرا ، أن سوف يحمل «عليا»
على البيعة اتقاء الفتنة وخوفا من تفرق كلمة المسلمين
وانتشار قواهم . فصاحت الزهراء بملء لوعتها :
« يا أبت رسول الله ، ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب
وابن أبي قحافة ؟ »

فضج الناس بالبكاء ، ومضى « عمر » محزوننا مغلوبا على
امرءه ، فاتى « أبا بكر » وسأله ان ينطلق معه الى
« الزهراء » لعلهما يحاولان استرضاءها
واستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، حتى جاء « على »
وادخلهما فسلما ، لكنها أشاحت بوجهها عنهما واستدارت
الى الحائط معرضة مفضية
واستطاع « أبو بكر » رضى الله عنه ان يجد صوته
ويقول :

— يا حبيبة رسول الله ، والله ان قرابة رسول الله احب
الى من قرابتي ، وانك لأحب الى من عائشة ابنتى ، ولوددت
يوم مات أبوك أنى مت ولا أبقى بعده ، أفترانى أعرفك ،
وأعرف فضلك وشرفك ، وأمنعك حقك وميراثك من رسول
الله ، الا انى سمعته صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورث ،
ما تركنا صدقة ؟
فقالت فاطمة :

« أرايتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم تعرفانه وتعملان به ؟ »

اجابا بصوت واحد : نعم
قالت : نشدتكما الله ، ألم تسمعا رسول الله يقول : رضا
فاطمة من رضاي ، وسخط فاطمة من سخطى ، فمن احب

فاطمة ابنتي فقد أحبنى ، ومن أَرْضِي فاطمة فقد أَرْضَانِي ،
ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني ؟

أجابا : بلى ، سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم
قالت : فاني أشهد الله وملأئكته أنكما أسخطتماني وما
أرضيتماني ، ولئن لقيت رسول الله لأشكوكما إليه
فارتاعا لما سمعا ، وخرج أبو بكر الى الناس والدمع
ينساب من مقلتيه ، فسألهم أن يقلوه من بيعتهم ، لكنهم
أبوا حتى لا تكون فتنة !



ولا يذكر المؤرخون - فيما قرأت - أن الزهراء قد حاولت
بعد ذلك أن تسترجع ما فات ، وإنما الذي وعاه التاريخ أنها
أسلمت نفسها للحزن ، فلم تر قط منذ مات أبوها صلى
الله عليه وسلم ، إلا محزونة باكية
وعز العزاء ، وغلب الصبر ولم يبق لها من رجاء إلا أن
تلحق بأبيها كما بشرها قبل الرحيل
وما أسرع ما لحقت به !

أصبحت يوم الاثنين ، الثاني من رمضان سنة إحدى
عشرة ، فعانقت بنيتها وملأت عينيها منهم ، ثم دعت إليها
« أم رافع مولاة أبيها عليه الصلاة والسلام » فقالت لها
بصوت واهن خفيض :

- يا أمه ، اسكبي لي غسلا
واغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل ، ثم لبست ثيابا لها
جددا كانت قد نبذتها حدادا ، ثم قالت لأم رافع :
« اجعلي فراشي في وسط البيت »

فلما فعلت ، اضطجعت عليه واستقبلت القبلة ، تتهياً
للقاء ربها ، ولقاء أبيها الحبيب
ثم أغمضت عينيها ونامت !

وقام « على » فاحتملها باكياً ، ودفنها بالبقيع ، ثم ودعها
وعاد محزوناً الى صفاره ، والى البيت الذى اوحش من بعد
« الزهراء »

وبات المسلمون محزونين ، بعد ان شيعوا الى القبر آخر
بنات النبى ، ولما تمض ستة أشهر على وفاته
وعاد الشمل الممزق فالتأم من جديد ولكن فى غير هذا
العالم ، فضم ثرى يشرب جثمان فاطمة كما ضم جثمان
أبيها صلى الله عليه وسلم وأخواتها الثلاث : زينب ورقية
وام كلثوم رضوان الله عليهن

وطوى القدر الصفحة الاولى من حياة الزهراء ، ثم
ما لبث ان عاد بعد حين الى الكتاب التاريخى الحافل ،
ليملأه بنضال الشيعة ، ومأساة كربلاء ، ومصارع الطالبين ،
وخدعة الدعوة العباسية ، وقيام الدولة الفاطمية ، وما حف
بذلك كله من جليل الأحداث ، وما تخلف عن ذلك كله من
بعيد الآثار فى حياة العقيدة الاسلامية ، وفى التاريخ المذهبى
والسياسى للمسلمين !

فهرس

صفحة

٧	 مقدمة
٩	 الأبوة فى المجتمع العربى
٢٥	 الأنثى فى المجتمع العربى
٤٧	 الأخوات الأربع
٧٥	 زينب الكبرى
١١١	 رقية ذات الهجرتين
١٤٥	 أم كلثوم
١٥٩	 فاطمة الزهراء